فصــــول

فى

النقد العربى القديم

دكتورة
مُهجة محمد كامل درويش
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر - فرع البنات بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فهذه فصول فى النقد الأدبى العربى القديم بحثت فيها عن نشأته وتطوره ومؤلفاته وأهم قضاياه مشيرة إلى فضل العلماء الأوائل وما بذلوه من جهد فى سبيل تثبيت أقدامه وعلو مكانه وإفادة الأدباء والأدباء بحسن توجيهاتهم وعظيم إرشاداتهم .

وأرجو أن تنير السبيل أمام الدارسين وينتفعوا بها على قدر ما بذلت من جهد فى بحثها .

والله الموفق ؟

المؤلفة

الفصل الأول

النقد وأدواته

النقد في اللغة والاصطلاح .

مرت لفظة النقد فى نشأتها بطورين أحدهما حسى والثانى معنوى ، وهذا شأن كل الألفاظ والمصطلحات

دلت فى البداية على الأخذ والتناول والقبض وإيقاع الأذى يقال نقدته الحية إذا لدغته ثم دلت على الفحص والتمحيص والتمييز والاختيار .

واستخدمت بالنسبة لنقد الدراهم (النقود) ذكر اللغويون(١) أن النقد والتنقاد تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها وأنشد سيبويه :

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة

نفى الدنانير تنقاد الصياريف .

ونقدها ينقدها وانتقدها وتنقدها ونقده إياها نقداً أعطاه فانتقدها أى قبضها تنقدت الدراهم إذا أخرجت منها الزيف ونقدنى ثمنه أى أعطانيه نقداً معجلا والدرهم نقد أى وازن جيد .

ونقد الشيء ينقده نقداً إذا نقره بأصبعه كما تنقر الجوزة والمنقدة حريرة ينقد عليها الجوز، ونقد الطائر الفخ ينقده بمنقاره (إذا جعله لا يصلح الصيد) . وفى حديث أبى ذر : كان النبى ﷺ فى سفر فقرب أصحابه السفرة .

---

(١) لسان العرب مادة نقد جـ٦ ط دار المعارف

ودعوه إليها، فقال إنى صائم فلما فرغوا جعل ينقد شيئا من طعامهم أى يأكل شيئاً يسيرا وهو من نقدت الشيء بأصبعى واحداً واحداً نقد الدراهم (إذا فحصته). ونقد الطائر الحب ينقده إذا كان يلقطه واحداً واحداً. وهو مثل النقر.

ثم قيل نقد الرجل الشيء ينقده بنظره إذا اختلس النظر نحوه ومازال فلان ينقد بصره إلى الشيء إذا لم يزل ينظر إليه، وفى حديث أبى الدرداء أن نقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك ومعنى نقدتهم عبتهم واغتبتهم وناقدت فلانا إذا ناقشته فى الأمر.

وكان المراد بالنقد فى أوليته الفحص لإبعاد الفاسد أو المراد ذم القبيح دون النظر إلى الجانب الحسن ثم تطور وأصبح المراد تمييز الجيد من الردىء، وانتقلت هذه اللفظة لتصبح مصطلحا يستخدم فى نقد الكلام لتمييز جيده من رديئه دون تعليل أو إيضاح أسباب الجودة أو الرداءة ثم ظهر التعليل ودراسة الأسباب والدواعى.

وانتقل هذا المصطلح من نقد الكلام إلى نقد الشعر وتقويمه لتمييز جيده من رديئه ثم إلى نقد الأدب عامة شعره ونثره.

ونقد الأدب يدل على تناوله ودراسته والنظر فيه وفحصه ومناقشته لاستخراج عناصر الجمال التى تسمو به وإبراز ما فيه من عيوب وغايته الإشادة بالعمل الجيد ووضعه فى الدرجة التى يستحقها بين أعمال جيدة أخرى.

ووضع المحدثون تعريفاً للنقد فقالوا(1): إنه التقدير لأى أثر فنى وبيان قيمته فى ذاته ودرجته بالنسبة إلى سواه».

والنقد الأدبى يختص بالأدب وأن كانت طبيعة النقد واحدة أو تكاد

(1) أصول النقد الأدبى ١١٦.

وسواء أكان موضوعه أدبا أم رسماً أم تصويراً أم موسيقى ، وعلى هذا يمكننا أن نقول إن النقد الأدبى فى الاصطلاح هو تقدير النص الأدبى تقديراً صحيحاً وبيان قيمته الأدبية فى ذاته ودرجته بالنسبة إلى سواه .

أقسام النقد :

والنقد الأدبى ينقسم إلى قسمين ذاتى وموضوعى والنقد الذاتى نشأ أولا وركنه الأساسى الذوق .

والذوق : فى معناه الحسى الأول يدل على علاج الأشياء باللسان للتعرف على طعمها وما يتميز به من حلاوة أو حموضة أو مرارة ويتبع التذوق الإعجاب أو النفور فهنا (مقدمة وحكم وعمل)(١).

ثم انتقلت الكلمة بعد ذلك إلى علاج الأشياء بالنفس لتعرف خواصها الجميلة أو الذميمة وانتقلت إلى مجال الأدب لتدوك جمال النص الأدبى أو قصوره ، وهى بذلك تمهد للحكم عو هذا العمل بالجودة أو التقصير .

ويعرف الذوق بأنه القوة التى يقدر بها الأثر الفنى . أو هو ذلك الإستعداد المكتسب الذى نقدر ما تستطيع فى أعمالنا وأقوالنا وأفكارنا(١) .

وعلى هذا فالذوق الأدبى هو وسيلة النقد الأدبى وأداته وهو القوة التى يتمكن بها الناقد من تقدير العمل الأدبى وبيان مكانته بالنسبة إلى سواه .

---

(١) المصدر السابق ١٢٠

(٢) فى علم النفس حامد عبد القادر ج ٣ ص ٣٤٧

والذوق هبة طبيعية تولد مع الإنسان ، ولكنها تحتاج إلى الصقل والتعليم والتهذيب لتنمو وتصل إلى أعلى مراتب الرقى والكمال وإذا أهمل صقلها ضعفت وانحدرت من ضعف إلى ضعف وأصبحت غير صالحة للتحكيم وابراز مواطن الجمال مواطن الجمال أو سواه .

ويؤثر فى الذوق البيئة والزمان والجنس والتربية والشخصية الفردية أو المزاج الخاص .

وهذا الاستعداد الفطرى مرتبط بالمؤثرات الأخرى يصدر عنه فى النهاية لون من النقد ملتصق بصاحبه وبيئته يمكن أن نطلق عليه اسم النقد الذاتى وقد وجد هذا النقد منذ نشأة الحياة ثم استمر مع ظهور الأدب الجاهلى والإسلامى فكان من أهم مايميز النقد فى العصور الأولى .

ثم لما اتسعت الآفاق وتثقفت العقول اختلفت الآراء وتعددت المقاييس فكان لابد من البحث عن مقياس ثابت تقاس به الفنون (لأن مايرضى عنه هذا قد لايرضى ذاك ، ولم يكن ذلك المقياس إلا النقطة أو النقاط التى التقت عندها أذواق ذوى الفطر السليمة الذين يبنون أحكامهم على المشاهد الحس وعلى النظر فيه نظرة فاحصة تبين عما اجتمع له من أسباب الحسن فى الشكل وفى الجوهر وفى تجرد من هوى النفس وتخلص من آثار التجارب الشخصية ، وإنما يستوحى الناظر ماينظر فيه وما هو شاخص بين يديه)(١) .

وهذا هو النقد الموضوعى . وهو يعتمد على مقاييس لا تختلف باختلاف النقاد ولا بتباين أمزجتهم وأهوائهم لأن لها قواعد ثابتة غير قابلة للتغيير من شخص إلى آخر مثل قواعد النحو والصرف والبلاغة وعلم

(١) دراسات فى نقد الأدب العربى ٣٩

اللغة والعروض والقوافى والتاريخ والثقافات المتعارف على حقائقها ، ومن هنا قسم بعض مؤرخى النقد إلى نقد لغوى ونقد بيانى ونقد تاريخى الخ ويمكن وضع كل هذه الأقسام تحت عنوان النقد الموضوعى .

ووجود المقياس الموضوعى للنقد لم يلغ الذوق ذلك أن النقد الأدبى لا يكتمل إلا بوجود المقياس الذاتى .

فالنقد علم فنى يعتمد عـــلى الموضوعية والذاتية المنبثقة عن الذوق والعاطفة .

والناقد فى استحسانه لموضوع وإهماله لآخر إنما يخضع لهواه ومزاجه الشخصى .

ومن الممكن أن يتسم عمل بكافة وجوه الكمال من الناحية الموضوعية ولكنه يفتقد إلى ملائمة هوى الناقد ونفسيته فيتصرف إلى غيره مما يستجيد بحكم أخلاقه أو طبائعه أو حالته النفسية وربما إذا احتكم إليه فى هذا العمل الجيد لم ير أنه أجود الأعمال ، واتجاه الناقد إلى استحسان موضوعات دون أخرى مما لا يلام عليه لأن ذوقه الشخصى هو القوة التى تصرفه عن هذا العمل واستجادته ومثله فى ذلك مثل الشاعر الذى يميل إلى الغزل أو الرثاء أو الوصف وينصرف عن الهجاء مثلا لأن ذوقه يتنافى مع ما فى الهجاء من قذف وإسفاف تسمو أخلاقه عنها ، والذى يلام عليه هو عدم العدل فى الحكم وإدخال العلاقات والمشاعر الخاصة تجاه الأديب داخل إطار النقد فإذا كره إنساناً هاجم أدبه وافترى عليـــه كذباً وبهتاناً وإذا أحب آخر تغنى بسمو معانيه وجدة أفكاره ومقدرته العظيمة .

وهذا الأمر هو ما يجب ألا ينساق إليه الناقد وأن كان التجرد المطلق من هوى النفس أمراً محالا بالنسبة للطبيعة البشرية .

ولكن من هو الناقد ؟

الناقد هو الإنسان الذى يستطيع أن يميز بين الجيد والردىء من القول .

وللناقد أدوات وعدة وخبرات يجب أن تتوافر فيه حتى يكون جديراً بإطلاق هذا اللقب عليه .

والناقد يمكن أن يكون شاعراً أو كاتباً كما يمكن أن يكون مفطوراً على حرفة النقد وصناعته دون أن يعمل بصناعة الشعر أو النثر .

يقول ابن رشيق :(وقد يميز الشعر من لا يقوله كالبزاز يميز من الثياب مالم ينسجه والصيرفى يخبر من الدنانير مالم يسبكه ولا ضربه حتى أنه ليعرف مقدار مافيه من الغش وغيره وفينتقص قيمته)[١] .

وأول أدوات الناقد الموهبة ورهافة الحس والقدرة على التمييز بين الجيد والردىء وتوفر الذوق الجيد الإيجابى .

وثانى الأمور سعة الثقافة والثقافة منها العام والخاص .

وأما الخاص فالمراد به الثقافة الخاصة بصناعة الأدب وهذه تقتضى العلم الواسع بالشعر والأدب فى عصره وماقبله من عصور والعلم بأصول العربيــة من نحو وصرف وبلاغة وعلم لغة وعروض وقواف وموسيقى ثم معرفة بالتاريخ الأدبى لعصره وما قبله من عصور ومعرفة بالعادات والتقاليد والجغرافيا والتاريخ العام لأصول العلوم والمعارف المختلفة فى العصر الذى قيل فيه النص أو النصوص التى سيحكم فيها ومعرفة سير

---

(١) العمدة : ٨٧

الشعراء، وحياتهم وما ثقفوه من ثقافات ودراسة نفسياتهم ودياناتهم .

وعلى الإجمال تقول إن ثقافة الناقد يجب أن تكون ثقافة موسوعية خاصة وعامة بكل ما فى عصره وما سبقه .

وكلما اتسعت ثقافة الناقد علت قيمه نقده .

ويضاف إلى ذلك الخبرة والذكاء والممارسة لهذا العمل وكلما كثرت الممارسة كلما كان تفهمه لعمله وتذوقه له أكثر جودة وكان نقده أكثر مرونة .

ويجب أن يتوافر فى الناقد المشاركة العاطفية ووسيلة ذلك أن يكون ذا قدرة على النفاذ إلى عقول الأدباء ومشاعرهم يحل محلهم ويأخذ مواقفهم أمام التجارب التى بلوها والفنون التى عالجوها ليرى بأعينهم ويسمع بأذانهم ولعله يدرك الأشياء كما أدركوها متأثرة بوجهة نظرهم وطبيعة أمزجتهم وهو بذلك يحاول نسيان نفسه ليحيا فترة فى ظل هؤلاء الادباء وفى نفوسهم أو بيئتهم النفسية مندمجاً فيهم كالغواص يهبط إلى أعماق البحار وراء طلبته دارساً أو مستخرجاً(١) جواهرها المخبؤة، ويجب أن يحاول الجمع بين مزاجه الخاص والحكم الموضوعى المجرد من الهوى .

يقول الاستاذ أحمد ضيف(٢) : (من شروط النقد الصحيح أن يبتعد الإنسان عن أهوائه وميوله عندما يقرأ كاتباً أو شاعراً يريد أن يفهمه كما هو ولا بد أن يتخلى عن أذواقه الخاصة لان الاستسلام إلى ذوق الشخص

---

(١) أصول النقد الادبى ١٥٠ .

(٢) مقدمة لدراسة البلاغة ١٠٢٩

ينافى طريقة النقد الصحيح ، وهذه الطريقة تجعله يفهم الكاتب ويفهم الشاعر بنفس الشاعر الذى قال بها شعره ، ولابد من وضع القارىء نفسه فى الظروف والأحوال التى أحاطت بالكاتب وقت الكتابة، هذه الطريقة هى التى تمكن القارىء أو الناقد من فهم روح الكتابة ولا بد أن ينسى الإنسان نفسه بين صفحات الكتاب فإذا أنتهى من تحليل الكتابة وفهمها على طريقة الكاتب، رجع إلى معلوماته الشخصية وإلى ذوقه الشخصى وإلى ما اكتسبه من النقد والدرس والحكم على المؤلف) .

والأستاذ أحمد ضيف يوضح الخطوات التي ينبغي أن يتبعها الناقد في نقده وهو يوضح أيضاً الثقافات التى ينبغى أن يثقفها فعليه بموضوعية النقد وعليه أن يتعرف على التاريخ الأدبى لعصر الأديب وعلى سيرته والعوامل والظروف التى أدت به إلى إنشاء هذا النص .

ثم على الناقد قبل أن يصدر حكمه أن يرجع إلى معلوماته ليعرف صواب المنشىء أو خطأه فى القواعد والأسس التى تقوم عليها العلوم المختلفة وفى النهاية يحكم ذوقه فى العمل الأدبى ليقومه تقويماً سليماً معتمداً على ركنى النقد الموضوعية والذاتية أو العلم وإحساس الناقد .

ومن أهم الأسلحة التى يجب أن يتسلح بها الناقد الحياد أو عدم التعصب لشخص أومذهب على آخر .

وقد عنى القدماء والمحدثون من مؤرخى النقد على السواء بهذه القضية الهامة فدعوا إلى عدم التعصب للقدماء لأنهم قدماء أو التحامل على المحدثين لأنهم محدثون ورأوا أنه يجب أن يسود العدل والإنصاف متى تحققت الجودة .

يقول المبرد(١)(وليس لقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان عهده يهتضم المصيب ولكن يعطى كل ما يستحق) .

كذلك رأينا الجاحظ ينتصر لحياد الناقد ويبدأ بنفسه فيقول : والقضية التى لا أحتشم منها ولا أهاب الخصومة فيها أن عامة العرب والاعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الامصار والقرى من المولدة والنابتة(٢) وليس ذلك بواجب لهم فى كل ماقالوه وقد رأيت منهم أناساً يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ولم أر ذلك قط إلا فى رواية للشعر غير بصير بجوهر مايروى ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفى أى زمان كان)(٣).

ويقول ابن قتيبة داعياً إلى الحياد والعدل فى النقد سالكا السبيل الذى دعا إليه) ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر بعين الإحتقار لتأخره بل نظرت إلى الفريقين وأعطيت كلا حقه ووفرت عليه حظه — فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب عنده إلا أنه قيل فى زمانه ورأى قائله ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن ولا خص به قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده .

وجعل كل قديم منهم محدثاً فى عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والاخطل يعدون محدثين ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد بهم وكذلك

---

(١) الكامل ١٨/١

(٢) النابتة : الطارئين .

(٣) الحيوان ٣: ١٣٠

يكون من بعدهم لمن بعدنا فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه وأتينا عليه به ولم يضعه عندنا تأخر قائله ولا حداثة سنه كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا رف صاحبه وتقدمه[١].

وكذلك فعل غير هؤلاء من النقاد فوجدنا من يتعقب أخطاء القدماء ويشيد بمحاسن المحدثين .

وهكذا ينبغى أن يكون العدل والإنصاف من أهم ما يتميز به الناقد .

حياد الناقد : قضية هامة التفت إليها النقاد واختلفت آراوهم فيها .

فمنهم من فضل القديم لجودته أو لقدمه ومنهم من تعصب للحديث لأنه معاصر له .

من أمثلة من فضل القديم ابن سلام صاحب كتاب طبقات فحول الشعراء .

أما فضل الحديث لجودته أو لم يفرق بين القديم والحديث فهو ابن قتيبة .

---

(١) الشعر والشعراء ٧ - ٨ المقدمة .

الفصل الثاني

نشأة مصطلح النقد الأدبي

النقد فطرى فى حياة الإنسان وإذا حاولنا التعرف على أوليته أو بدايته وجدنا أن جذوره تمتد إلى أقدم العصور البشرية بل ربما صح لنا أن نقول إن النقد نشأ مع نشأة الإنسان على الأرض فهو طبيعة راسخة وفطرة فطر الله الإنسان عليها وحياته كلها استحسان لأمر واستهجان لآخر نلمس ذلك فى الحياة اليومية فى توبيخ الآباء للأبناء وفى تفضيل بعض الأطعمة وعدم استساغة أخرى، وفى الإقبال على بعض العلوم والفنون على غيرها. وفى العلاقات المختلفة بين الأفراد والجماعات.

وكذلك جذور النقد الأدبى وجدت مع أوائل الأعمال الأدبية التى ظهرت فى الحياة فهى تؤيد الرأى القائل بأن أول ناقد وجد مع أول شاعر.

وهذا القول يلفت الانتباه إلى أن النقد عنى أولا بالشعر وذلك لمميزات فضلته على النثر وأول هذه الأمور أن النثر — والمراد النثر الأدبى بطبيعة الحال — تأخر ظهوره إلى العصر الإسلامى ثم نما وازدهر باتساع الآفاق وتطور الفكر وتفوق على الشعر فيما بعد فى مجالات عدة وهذا الكلام يقبله العقل لأن النثر الأدبى يعتمد على عناصر كثيره وظروف معينة لينمو وينهض أهمها الفكرة الجيده والخيال الخصب والعاطفة المتلونة والأسلوب المرن المميز الذى يحوى كل هذه العناصر ويبرزها فى صورة جميلة ولا يمكن أن يكون هذا النثر وجد منذ الجاهلية.

كما ادعى بعض مؤرخى الأدب وأن كانت بداياته يمكن أن تكون ظهرت فى الأمثال وسجع الكهان .

يقول بروكلمان متصوراً أن النثر الأدبى قد سبق الشعر الى الظهور (ويختلف عادة المقال الذى يعبر به الإنسان عن مشاعره القوية عن الكلام العادى بما يتطلبه أولا من تعديلات صوتية فى الإلقاء ثم بما يدخل عليه عن مميزات خاصة فى الألفاظ ، فانقسم الكلام الى أجزاء لم يراع فى أول الأمر التماثل فى تركيبها ولكنها تنشد لانسجام فى الجمال الذوقى بينها .

وأول حلية أدخلها العرب عليها هى السجع وكان النثر المسجوع دائما أبداً يلازم الحالات الخطيرة والمناسبات الرهيبة أو الطقوس والحفلات الرسمية ولم يقصد به بعد الى التسلية وادخال السرور على السامعين وإنما قصد به وقتئذ الاستيلاء على قلوب العرب السامعين وسحر أفئدتهم فاستحسنه العرافون والكهنة وتدرج العرب من النثر المسجوع إلى وزن تفعيلى بسيط بعد أن سيطرت على مشاعرهم القافية والتوقيع بفضل الأسباب والتأثيرات الخارجية ثم تطور الوزن بعد ذلك إلى الأشعال العديدة)(١) .

ورأىَ بروكلمان يتصور فيه أن النثر سبق الشعر إلى الوجود وكان ذلك ممثلا فى سجع الكهان ثم تطور وظهر فى أشكال عديدة منها الشعر وليس هناك ما يؤيد صحة هذا الرأى ومن الممكن جداً أن يكون الشعر وسجع الكهان نشأ فى نفس الوقت فلكل طريقته وأسلوبه المختلف عن أسلوب الآخر ثم النثر الفنى ليس هو سجع الكهان وان أمكن أن نعده بداية .

وقد اتفقت أكثر آراء مؤرخى الأدب على أن الشعر كان أسبق إلى

---

(١) مجلة الأزهر السنة الثانية ص ٦٥٤

الوجود عن النثر الغنى وأنا مع هذا الرأى كما أوضحت سابقا .

وإذا كان الشعر قد سبق النثر إلى الوجود فلا بد أن يلتفت النقاد إليه ويعنوا بمحاسنة وعيوبه قبل عنايتهم بالنثر .

ومن الأسباب التى جعلت النقاد يلتفتون الى الشعر قبل النثر خواص الشعر وهو أنه منظوم (وكل منظوم أفضل من كل منثور)(١) .

يقول ابن رشيق مؤيدا هذا الرأى (ألا نرى أن الدر وهو أخو اللفظ ونسيبه واليه يقاس وبه يشبه إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ولم ينتفع به فى الباب الذى له كسب ومن أجله انتخب وان كان أعلى قدراً وأغلى ثمنا فإذا نظم كان أصون له من الابتذال وأظهر لحسنه مع كثر الاستعمال .

وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد فى الأسماع وتدحرج عن الطباع ولم تستقر منه إلا المفرطه فى اللفظ وإن كانت أجمله ولواحدة من الألف وعسى الا تكون أفضله ، فإن كانت هى اليتمية المعروفة والفريدة المصروفة فكم فى سقط الشعر من أمثالها ونظرائها لا يعبأ به ولا ينظر اليه .

فإذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تالفت أشتاته وازدوجت فرائده وبناته وأخذه اللابس جمالا والمدخر مالا فصار قرطة الآذان وقلائد الأعناق وأمانى النفوس وأكاليل الرؤوس يقلب بالألسن ويخبأ فى القلوب مصونا باللب ممنوعا من السرقة والغصب .

وقد اجتمع الناس على أن المنثور فى كلامهم أكثر وأقل جيداً محفوظه

---

(١) العمده : ١٥

لأن فى أدناه من زينة الوزن والقافية مايقارب به جيد المنثور) .

ورأى ابن رشيق وإن كان يتسم بالصحة على وجه العموم إلا أن تفاصيله تحتاج الى مناقشة فنوافقه أولا فى أن الشعر أفضل من النثر لما اتسم به من سمات مميزة .

ولكن نرى أنه قد جانبه الصواب فى أشياء منها خلطه بين النثر العادى المستعمل فى لغة الحياة اليومية والنثر الفنى وكان عليه أن يضع بإزاء الشعر النثر الفنى وليس لغة الحياة الحياة اليومية فالشعر شطر الأدب والنثر الفنى هو الشطر الثانى ذلك أن النثر الفنى له نظام وقواعد يسير عليها وعلى هذا فهو أيضا نوع من النظم ولكنه نظم يختلف عن طريقة الشعر وأسلوبه .

ومن كلامه يتضح أنه فهم أن المنثور هو الألفاظ المفردة وذلك فى فى تشبيهه للمنظوم بالجواهر الكريمة المصنوعة قلادة أو قرط .

وفى المنثور لحبات هذه الأحجار مفردة دون نظم .

وبطبيعة الحال هناك فرق بين الألفاظ المفردة وبين النثر الأدبى أو حتى النثر فى لغة الكلام .

وعلى هذا نرى أن ابن رشيق قد أخطأ التشبيه فأصبح التدليل على صدق رأيه أو إيضاح قضيته لا فائدة منه ولا جدوى ترجى .

ومن فضل الشعر على النثر وأهميته بالنسبة للعرب أنه يتغنى بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأنجاد وسمحائها الأجواد وهو يدل الأبناء على حسن الشيم[1] ،

---

(١) العمدة : ١٦

ومن فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الملك باسمه وينسبه إلى أمه ويخاطبه بالكاف كما يخاطب أقل السوقة فلا ينكر ذلك عليه بل يراه أوكد فى المدح وأعظم اشتهاراً للممدوح.

ومن فضائله أن الكذب الذى اجتمع الناس على قبحه حسن فيه وحسبك ما حسن الكذب واغتفر له قبحه.

وقد قال رسول الله ﷺ إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكم وقيل لحكمه.

لهذه الأسباب ولغيرها فضل العرب الشعر وعنى النقاد بنقد الشعر قبل عنايتهم بنقد النثر.

وعلى الرغم من فطرية النقد ومن معرفة العرب له منذ الجاهلية واستخدام بعض مقاييسه فى استحسان شعر شاعر أو استهجانه فإن مصطلح النقد قد تأخر كثيراً ولم يستعمل فى الغالب قبل أواخر القرن الثانى للهجرة، إذ ورد لفظ ناقد فى مجال الحديث عن الشعر على لسان المفضل الضبى ت ١٦٨ هـ وهو يعلق على ما قام به حماد الروية من نحل الأشعار فيقول (ولكن — أى حماد — رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب الرجل ويدخله فى شعره ويحمل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد)(١).

---

(١) المفضل بن محمد الضبى كان من الرواة الثقاة الكوفيين أخذ عنه أبو زيد الانصارى لثقته وجمع الأشعار التى سماها المفضليات ويطلق عليها أيضا الاختيارات وهى مائة وستة وعشرين قصيدة وقد تزيد أو تنقص حسب الروايات وكان جمعه لأكثرها عن الألسنة. (تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢).

وفي القرن الثالث استعمل مصطلح النقد للشعر خاصة . وكان البحترى الشاعر ت ٢٨٤ هـ . من أوائل من أشاعوا استخدام هذا المصطلح وعن بعضهم أنه قال:(٢) (رآني البحترى ومعى دفتر شعر فقال ما هذا فقلت : شعر الشنفرى(٣) فقال: والى أين تمضي فقلت : إلى أبى العباس أقرؤه عليه فقال : لقد رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابه فما رأيته ناقدا للشعر ولا مميزا للألفاظ ورأيته يستجيد شيئا وينشده وماهو بأفضل الشعر فقلت له : أما نقده وتمييزه فهـــذه صناعة أخرى ولكنه أعرف الناس بإعرابه وغريبه .

وكثر استعمال هذا المصطلح منذ القرن الرابع الهجرى فقد ألف أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادى ت ٣٣٧ هـ كتابا سماه (نقد الشعر) وصرح فيه بأن النقد يبحث فى تخليص جيدة من رديئة وهذا الكتاب هو أول كتاب يحمل فى عنوانه كلمة النقد وإن كان قد سبق بجهود كثيرة فى مجال التأليف النقدى ووضع أصوله وقواعده ومن هذه الكتب التى سبقته إلى الوجود فحولة الشعراء للأصمعى ت ٢١٤ هـ(١).

طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ت ٢٣٢هـ والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ ت ٢٥٥ هـ والشعر والشعراء لابن قتيبة ت ٢٧٦هـ وسيأتى التعريف بهذه المؤلفات التى توضح جهود السابقين فى مجال التأليف النقدى .

---

(١) معجم الأدباء ١٠/٢٦٥

(٢) دلائل الاعجاز ١٨٣

(٣) الشنفرى : من الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى .

(٤) هو عبد الملك بن قريب بن قيس وأشتهر بكنيته الأصمعى وكان أتقن القوم وأعلمهم بالشعر وأحضرهم حفظا تعلم نقد الشعر على خلف الأحمر وهو صاحب الأصمعيات وهى مختارات من شعر الشعراء .

وقد أنكر قدامة فضل السابقين فذكر فى سبب تأليف كتابه أنه وجد الناس قصروا فى وضع كتاب فى النقد فرأى أن يتكلم فى ذلك بما يبلغ الوسع. وفصل قدامة مذهبه فى النقد فقسم الشعر إلى عناصره الأولى المفردة اللفظ والمعنى والوزن والقافية، وإلى عناصر أخرى مركبة من هذه العناصر وذكر أن الشعر قد يكون جيدا أو رديئا أو بين الأمرين. وأنه صنعة كسائر الصناعات وذكر الصفات التى تبلغ بالشعر غاية الجودة فإن وجد بعض هذه الخلال كان شعرا فى غاية الرداءة وإلا فهو مبين بين أى مبين طرفى الجودة والرداءة بحسب مدى قربه أو بعده من أى من الطرفين أو توسطه بينهما(١). ومنهج قدامه فى كتابة منهج عقلى يختلف عن منهج العلماء العرب. وكان لكتابه صدى كبير فتصدى له كثير من النقاد يناقشون آراءه ويبينون غلطه فالآمدى ت ٣٧١ ألف كتابا فى تبيين غلط قدامة، وابن رشيق له كتاب تزييف نقد قدامة فيما ذكره من أبى الأصبع فى كتابه تحرير التحبير، وعبد اللطيف البغدادى ت ٦٢٩ هـ له كتاب فى شرح نقد قدامة وكل هذه الكتب مفقودة(٢).

وتأثر به آخرون وأولوا منهجه عناية خاصة وهم أبو هلال العسكرى من كتاب الصناعتين، ابن رشيق القيروانى فى كتابه العمدة وابن سنان الخفاجى فى كتابه سر الفصاحة. كما تأثر علماء البلاغة والبديع تأثرا شديدا بقدامة وآرائه فى نقد الشعر(٣).

وكثر التأليف فى النقد الأدبى منذ القرن الرابع فألف الآمدى كتابه الموازنه بين الطائيين أبى تمام والبحترى، وأكثر من استخدام مصطلح

---

(١) مقدمة قدامه

(٢) نقد الشعر تحقيق د. عبد المنعم خفاجى مقدمة المحقق.

(٣) ن، م (٤) الموازنه : ٨

النقد ، من ذلك قوله : قال صاحب أبي تمام (إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه وفهمه العلماء والنقاد في علم الشعر وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلة لم يضره طعن من طعن بعدها عليه(١).

وفي القرن الخامس سمى ابن رشيق القيرواني ت٤٦٣ هـ كتاب العمدة في محاسن الشعر ونقده ، وسمى بابا من أبوابه، باب التصرف ونقد الشعر وفيه أوضح مذهبه في تفصيل الشاعر ففضل الشاعر المتصرف في أنواع الشعر وأغراضه المختلفة ومعانيه المتباينة قال : (يجب للشاعر أن يكون متصرفا في أنواع الشعر من جد وهزل وحلو وجزل وأن لا يكون في النسيب أبرع منه في الرثاء ولا في المديح أنفذ منه في الهجاء . ولا في الافتخار أبلغ .

ولا في واحد مما ذكرت أبعد منه صوتا في سائرها فإنه متى كان كذلك حكم له بالتقدم وحاز قصب السبق كما حازها بشار بن برد وأبو نواس بعده . حكى الصاحب بن عباد في صدر رسالة صنعها عن أبي الطيب، قال . حضرت بمجلس عبيد الله بن طاهر وقد حضره البحتري فقال : يا أبا عبادة أمسلم أشعر أم أبو نواس فقال : بل أبو نواس لأنه يتصرف في كل نوع ويبرع في كل مذهب أن شاء جد وإن شاء هزل . ومسلم يلزم طريقا واحدا لا يتخطاه فقال له عبيد الله أن أحمد بن يحي ثعلبا لا يوافقك على هذا فقال : أيها الأمير ليس هذا من علم ثعلب واضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله فإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايق الشعر . وقد خالف البحتري أبا نواس في الحكم بين جرير والفرزدق فقدم الفرزدق . قيل له : كيف تقدمه وجرير أشبه طبعابك منه فقال : إنما يزعم هذا من لا علم له بالشعر جرير لا يعدو في هجائه الفرزدق ذكر القين وجعثن وقتل الزبير والفرزدق يرميه في كل قصيدة بأيده فإذا كان هذا فقد حكم له بالتصرف . ..

---

(١) الموازنة : ٨

وبهذا أقول أنا وإياه(١) واعتقد فيهما وإذا لم يكن شعر الشاعر نمطاً واحداً لم يمله السامع حتى أن حبيباً (أبا تمام) أدعى ذلك لنفسه فى القصيدة الواحدة فقال :

الجد والهزل فى توشيع لحمتها
والنبل والسخف والأشجان والطرب

وأنشد الصاحب لأبى أحمد بن يحيى المنجم فى نقد الشعر :

رب شعر نقدته مثل ما ينقد رأس الصيارف الدينارا
ثم أرسلته فكانت معانيه والفاظه معا أبكاراً
لو تأتى لقالة الشعر ما أسقط منه حلوا به الأشعاراً
أن خير الكلام مايستعير النا س منه ولم يكن مستعاراً(٢)

وهكذا كثر استعمال مصطلح النقد ونمت مقاييس جودة الشعر ، وقعدت قواعده .

وقد تميز النقد العربى القديم بأصالته وشغلت قضاياه العلماء والشعراء عصوراً طويلة .

---

(١) رأي ابن رشيق القيرواني .

(٢) العمدة باب التصرف ونقد الشعر .

الفصل الثالث

فى أطوار النقد العربى القديم

(من الجاهلية إلى القرن الثالث)

أولا النقد فى العصر الجاهلى :

لكل علم أوفن بداية يبدأ منها ويتطور عنها وهو بذلك كالبناء الذى يبدأ بلبنة ثم يشيد فيصبح قصراً منيفا أو مدرسة كبيره أو داراً للإستشفاء كاملة العتاد والعدة وهكذا كل مافى الحياة من مظاهر لم يظهر قويا كاملا بل بدأ بخطوة ضيقة تلتها خطوات مع مرور الزمن ووجود العوامل الدافعة إلى التقدم والنماء .

والنقد وإن كان فطرة فى طبيعة البشر فإنه لم يظهر كاملا فى عصور البشرية الأولى بل كان اللبنة الأولى والأساس الذى بنى عليه النقد فى مراحل وعصور مختلفة .

ونتيجة للبعد الشاسع بيننا وبين تلك العصور الأولى ولعدم وجود آثار مدونة عن هذا الزمان البعيد فإننا لا يمكن أن نتعرف على حقيقة وسمات أول نقد أختص بالأدب . وكل ما باستطاعتنا أن نرجع إلى الآثار الموجودة عن العصر الجاهلى — والذى حدده المؤرخون بحوالى مائة وخمسين عاما قبل البعثة المحمــــدية أو مائتين عاما على أكثر تقدير (١)

(١) الحيوان ١/٧٤

لنتعرف على خصائص النقد فى طور النشأة الأولى وما تميز به من سمات .

ووسيلتنا للتعرف على ذلك سبيلان :

الأول : الأخبار والروايات المتناثرة فى كتب التراث عن النقد والنقاد فى الجاهلية . وان شك فى بعضها مؤرخى الأدب فهى تقوم دليلا على وجود نقد أدبى أختص بالشعر وكان له صفات ومعايير معينة .

الثانى : التراث الشعرى الأصيل ممثلا فى المعلقات ومايستنبط منه من مقاييس تدل على رقى الشعر وقواعد نقده .

نشأ النقد منذ الجاهلية وربما وجدت جذور النقد العربى مع أول شعر نظمه شاعر فالنقد هو المرحلة الثانية فى خط تطور الآداب .

والشعر الجاهلى قديم موغل فى القدم مر بأطوار وأزمان طويلة فكان طفلا ثم نما وترعرع حتى أصبح قصيداً متينا على يد أمرىء القيس وأضرابه من فحول الجاهلية ولابد أن يكون للشعر تاريخ طويل قطع فيه أشواطاً من الصناعة والدربة حتى أكتمل على هذا الشكل المعروف لدينا . والمعلقات التى بلغت مرتبة كبيرة من النضج الفنى ونالت إعجاب القدماء والمحدثين كانت ثمرة دربة ومران طويل فى صناعة الشعر .

وبطبيعة الحال لم يصل الينا أول شعر ولا أول نقد وفى الشعر دلائل واضحة على المحاولات الطويلة فى نظم الشعر وأمرؤ القيس هذا الشاعر الجاهلى القديم كان يحاكى من قبله فى الوقوف على الأطلال وبكاء الديار يقول :

عوجا على الطلل المحيل لأننا تبكى الديار كما بكى ابن خذام(١)

---

(١) ديوان أمرىء القيس ص ١٤ ط بيروت

ويقول عنترة : أن الشعراء الأقدمين تناولوا كل المعانى فلم يتركوا شيئا للمتأخرين :

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم(١)

وإذا كان الأمر كذلك فقد سبقا هذان الشاعران بأجيال من الشعراء استنفدوا كل جميل وجديد .

بل أنه من المؤكد أن هذا الشعر الجاهلى الذى وصل الينا لم يكن من المحاولات الأولى ولا من طور التكوين والنشأة ذلك أن ما يصل إلينا (كان قريبا من الكمال حائزاً على أسباب الجمال والاتقان لفظاً ومعنى وعروضا حتى أن الشعراء المولدين لم يستطيعوا أن يضيفوا إليه جديداً بارعا فلم يزيدوا على البحور الجاهلية شيئاولم يتمكنوا من تغيير نهج القصيدة ومهما كانت المحاولات التى بذلت للخروج على عمود الشعر فى العصر العباسى فإنها انتهت بالعودة إليه (٢) .

لم يصل الينا كل هذا الشعر ومن المؤكد أنه كان كثيرا جداً فقد كان الشعر جد العرب وهزلهم وصناعتهم الأثيرة إلى نفوسهم عبروا فيه عن أحاسيسهم وآمالهم وأحزانهم وانتصارات أقوامهم .

يقول الجاحظ فى حيوان « فكل أمة تعتمد على استيفاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال وكانت العرب

---

(١) ديوان عنتره ص ١٨٢
(٢) الشعر الجاهلى خصائصه وفنونه : ١٢٩

فى جاهليتها تحتال فى تخليد مآثرها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان هو ديوانها (١) .

وقال ابن سلام (كان الشعر فى الجاهليه ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون .. قال عمر بن الخطاب كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه) (٢)

وقال أبو هلال العسكرى .. كذلك لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستنبط آدابها ومستودع علومها) (٣) .

ومع كل هذه الأهمية للشعر الجاهلى فقد فقد منه الكثير نتيجة لبعد الزمان وعدم التدوين وموت الرواة كما أن وثنية بعضه وربما تعارضه مع ما جاء به الإسلام جعل الرواة فى عهد التدوين يهملونه ويسقطونه من ديوان الشعر العربى فى العصر الجاهلى .

والدليل على ذلك قلة ما جاء عن ديانات العرب قبل الإسلام فى البقية الباقية من الشعر الجاهلى يضاف إلى ذلك توجيه جل الإهتمام إلى حفظ القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ كل هذا قلل التراث الشعرى الجاهلى وإن كان ظهر كثير من الشعر فى عصر الرسول ﷺ ينافح عن الإسلام ويمدح المجاهدين ويرثى والشهداء سبيل الإسلام .. إلخ .

قال أبو عمرو بن العلاء : ما أنتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافر لجاءكم علم وشعر كثير .

---

(١) الحيوان ١/٧١—٨٢

(٢) طبقات الشعر : ٢٢

(٣) الصناعتين : ١٣٨

وإذا كان قد ضاع الكثير من الشعر الجاهلي ففي الغالب أنه ضاع الكثير من النقد الجاهلي ومن الروايات والأخبار الباقية يظهر أن العرب فتنوا بالشعر فرووه وتذوقوه وتغنوا به ونظروا فيه تلك النظرة التي تلائم حياتهم وطبيعتهم فأعلنوا استحسانهم لما استجادوا واستهجانهم لما استقبحوا في عبارات موجزة وأحكام سريعة معتمدين في ذلك على فطرتهم السليمة . ومعارفهم المحدودة .

ويظهر من أكثر الروايات أن الناقد في الغالب كان شاعراً مثل النابغة الذبياني .

ومن أمثلة نقد الشعر الجاهلي يروى من أن نابغة بني ذبيان كانت تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ يجتمع اليه فيها الناس ، فدخل عليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى وقد أنشده شعره وأنشدته الخنساء قولها :

قذى بعينيك أم بالعين عوار

حتى انتهت إلى قولها :

وإن صخراً لتأتم الهداة به ‏ كأنه علم في رأسه نار
وإن صخراً لمولانا وسيدنا ‏ وإن صخراً إذا نشتو لنحار

فحكم لها بأنها أشعر بنات جنسها ولو دخلت عليه قبل الأعشى وسمع شعرها لحكم لها بأنها أشعر الناس . لكن لم يرق لها تفضيلها على بنات جنسها وحدهن فقالت له : أنها أشعر من كل الرجال(١)

---

(١) أخبار النابغة الذبياني ونسبه

فقال حسان للنابغة أنا والله أشعر منك ومنها . قال : حيث تقول ماذا قال : حيث أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجـدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال : أنك شاعر لولا أنك قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن أنجبك(١) .

وفى رواية أخرى فقال له : إنك قلت الجفنات ولو قلت الجفان لكان أكثر ، وقلت يلمعن ولو قلت يبرقن لكان أبلغ فى المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقا ، وقلت يقطرن من نجدة دما فدللت على قلة القتل ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصبابا الدم وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك فقام حسان منكسرا منقطعا .

وقد شك بعض العلماء فى مقدرة النابغة وأنه يستطيع أن يظهر تلك الحجج التى فند بها بيتى حسان فى معرض الخصومة ولانرى ما يدعو إلى الشك فالنقد فطرى مشتق من البيئة الجاهلية العربية وبحكم العادة والعرف السائد فى استخدام الألفاظ كان حكم الشاعر . ثم أن النابغة عاب عليه الفخر بالفروع دون الأصول فالنقد بسيط دائر حول استخدامات الألفاظ والمعانى وكان العربى عارفا بأصول لغته وإن لم يدرك معرفة المصطلحات المختلفة فلاغرابة فى هذا النقد وعلى هذا فليس فيه مايدعو إلى الشك .

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٦٠

٢ — ومن أقدم أخبار النقد عند الجاهليين والتى تدل على نشأة جذور بعض قضايا النقد الأدبى الهامة وهى قضية الموازنة مادار من نقد أم جندب زوج امرىء القيس لشعر زوجها وشعر علقمة بن عبيدة الفحل فى وصف الفرس .

وأصل الخبر أن امرأ القيس لما كان عند بنى طىء زوجوه منهم أم جندب ، وجاء يوما علقمة بن عبده التيمى وهو قاعد فى خيمته وخلفه أم جندب فتذاكرا الشعر فقال امرؤ القسى أنا أشعر منك فقال : قل وأقول وتحاكما إلى أم جندب فقال أمرؤ القيس قصيدته التى مطلعها :

خليلى مرا بى على أم جندب
نقض لبانات الفـــؤاد المعذب

ثم قال علقمته فى القافية والروى قصيدته التى مطلعها :

ذهبت من الهجران كل مذهب
ولم يك حقا كل هذا التجنب

واستطرد كل منهما إلى وصف ناقته وفرسه فلما فرغ علقمته فضلته أم جندب على امرىء القيس ، فقال لها : بما فضلته على ؟ فقالت : فرس ابن عبدة أجود من فرسك قال : وبماذا . قالت : إنك زجرت فرسك وحركت ساقيك وضربت بسوطك ؟ تعنى قوله :

فللزجر الهوب وللساق درة
وللسوط مته وقع أخرج مهذب

وقال علقمته :

فأدركن ثانيا من عنانه
يمر كمر الرائح المتحلب

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه لم يضربه بسوط ولم يتعبه فقال امرؤ القيس : ما هو بأشعر منى ولكنك له عاشقة وطلقها فخلفها عليه علقمة الفحل(١) .

وهذه القصة تدل على ذاتية النقد ومتابعته هوى النفس من جانب وعلى جزئية من جانب آخر ، فأم جندب لم تحكم على القصيدة ككل بل حكمت على جزئية فقط منها وهذا غير كاف لتفضيل شاعر على شاعر آخر أو لإصدار حكم نهائى على شعر الشاعرين ، والنقد كما رأينا يتعرض للتقصير فى اللفظ والمعنى وهو يشير إلى بدء قضية الموازنة وعلى هذا فلست أدرى ما سبب طعن المؤرخين فى صدق هذه الرواية ، وإذا كان السبب يرجع إلى الإشارة إلى قضية الموازنة فلكل قضية بداية وربما كان بداية هذه القضية أو أصلها يرجع إلى الخبر القديم فى احتكام امرىء القيس وعلقمته إلى أم جندب .

٣ — ويروى أن طرفة بن العبد سمع المسيب بن علس ينشد :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره   بناج عليه الصيعرية مكدم

فقال طرفة استنوق الجمل والصيعرية من سمات النوق(٢) .

وهذا النقد يعتمد على إظهار الخطأ في استخدام اللفظ فى غير موضعه الصحيح حيث وصف المذكر بما يوصف به المؤنث وحكم طرفة أكتسبه من عادات بيئته والعرف فى استخدام الألفاظ لمدلولاتها وهو لايرجع إلى موضوعية أو مقدرة لغوية عظيمة .

٤ — ومن النظرة الموضوعية ما يتصل بموسيقى الشعر ، والخطأ فى

(١) شعراء النصرانية ٢٢/١ — ٢٩ ، الموشح ٢٨ — ٣٠

(٢) عيار الشعر ، الموشح : ١١٠ : الأغانى ٢٠٢/٢١ الهيئة المصرية .

الوزن والقافية ، يروى صاحب الأغانى أن النابغة كان يقوى فى شعره .
والإقواء عيب من عيوب القافيـــة وهو اختلاف حركة الروى فى القصيدة .

يقول ابن قتيبة : ومن عيوب الشعر الإقواء وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : الإقواء اختلاف الإعراب فى القوافى وذلك أن تكون قافية مرفوعة وأخرى مجروورة(١) .

ذكر صاحب الأغانى أن النابغة لما دخل يثرب هابه أهلها فلم يستطيعوا أن يقولوا له لحنت وأكفأت فدعوا قينة وأمروها أن تغنى فى شعره ففعلت فلما سمع الغناء فطن لموضوع الخطأ فلم يعد إليه .

والأبيات هى :

أمن آل مية رائح أو مغتدى عجلان ذا زاد وغير مزود

زعم البوارح أن رحلتنا غـــدا
وبذاك خبرنا الغرابُ الأسودُ(٢)

وهو يقوى أيضا فى الأبيات التالية :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه
فتناولته واتقتنا باليـــــــــد(٣)

---

(١) مقدمة الشعر والشعراء
(٢) الأغانى ٩/١١
أمن آل مية : يخاطب نفسه كالمستثبت ، عجلان من العجلة — الزاد فى هذا الموضع التسليم ورد التحية — البوارح ما جاء من ميامنك إلى مياسرك مولاك مياسره — السانح ما جاء من مياسرك فولاه ميامنه .
(٣) الأغانى ١١/١١

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

وكأن النابغة يقول وردت يثرب وفى شعرى بعض العاهة فصدرت عنها وأنا أشعر الناس(١) .

٥ — وعن الأحكام السريعة الموجزة دون تعليل أن الخنساء(٢) لما أنشدت النابغة بعد أن أنشده الأعشى وحسان والشعراء قال لها : لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفا لقلت إنك أشعر الإنس والجن ؛ فقام حسان فقال والله لأنا أشعر منك ومن أبيك فقال له النابغة يا بن أخى أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع(٣)

فخنس حسان لقوله . وفى هذه الرواية يفخر النابغة بمقدرته وجودة شعره ويستشهد بأحد أبياته التى بلغت مكانة عالية . وسبق أن ذكرنا أن الحكم بتفضيل شاعر لا يمكن من بيت واحد من شعره وإنما لابد من استقصاء شعره الجيد وأغراضه وما أجاد فيه وما قصر إلخ .

ولكن النقد في الجاهلية كان يعتمد علي الجزئية إلي جانب الذوق .

٦ — ومن الأحكام العامـــة فى تفضيل الشعراء ما رواه حماد(٤) الراوية من أن النابغة الذبيانى نظر إلى لبيد بن ربيعة وهو صبى مع أعمامه على باب النعمان بن المنذر فسأل عنه فنسب له فقال : يا غلام إن عينيك لعينا شاعر أفتقرض من الشعر شيئاً قال نعم يا عم قال فأنشدنى شيئاً مما قلته فأنشد قوله :

— ألم تلمم عن الدمن الخوالى لسلمى بالمذانب فالقفال

(١) الأغانى ١١/١١ (٢) نفسه ٤/١١
(٣) الأغانى ٦/١١ (٤) الاغانى ٣٧٧/١٥ ، ٣٧٨

فقال له : يا غلام أنت أشعر بنى عامر زدنى يا بنى فأنشده :

طلل لخولة بالرسيس قديم
فبعاقل فالأنعمين رسوم

فضرب بيديه إلى جنبيه وقال أذهب فأنت أشعر من قيس كلها أو قال هوازن كلها . وفى رواية أخرى قال له : زدنى فأنشده قوله :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

فقال النابغة أذهب فأنت أشعر العرب . ويلاحظ أن النابغة تدرج فى حكمه بشاعرية لبيد مع استحسانه لشعره .

— وأحيانا كان الناقد الجاهلى ينظر إلى شعر الشاعر جملة ثم يصدر حكما سريعا يوضح مكانته ومنزلته .

٧ — ومن أمثلة ذلك ما يرويه المرزبانى فى الموشح من تحاكم الزبرقان بن بدر وعمر بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدى إلى ربيعة بن حذار الأسدى فى الشعر فى أيهم أشعر فقال للزبرقان أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيئا فينتفع به ، وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر ، أما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم ،

وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر (١) .

والحكم هنا يعتمد على التعميم وعلى التشبيهات الحسية المألوفة للعرب فى ذلك الزمان ويستنبط من هذه التشبيهات آراء ضمنية فى شعر كل شاعر .

(١) الموشح ١٠٧

٨ — ومن حكمهم على الشاعر ببيت واحد من شعره . سئل الحطيئة من أشعر العرب فقال : الذى يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه

يفـــره ومن لا يتق الشتم يشتم

يعنى زهيرا ثم سئل : ثم من ؟ قال : الذى يقول :

من يسأل النـاس يحرموه وسائـــل الله لا يخيب

يعنى عبيد بن الأبرص(١) .

وهناك لون من النقد يصح أن يطلق عليه نقد ضمنى أو غير مباشر وقد ظهر هذا اللون فى الألقاب التى لحقت بالشعراء وهى تدل على منزلة شعرهم وقيمته من ذلك المهلهل والمرقش والمثقب والمتنخل والأفوه وصناجة العرب . فهذه الكنى والألقاب تتضمن حكما على شعر الشاعر .

ومن النقد أيضاً الذى يبين مكانة الشعر وقيمته الصفات التى تطلق على بعض الشعر مثل المعلقات أو الحوليات أو المنقحات .

ويلاحظ على الأحكام السابقة غلبة الايجاز والارتجال عليها وكذلك الجزئية والاعتماد علي الذوق والبعد عن الموضوعية فى أكثرها فلم يتعرض ناقد لقصيدة كاملة من شعر شاعر ولم يوازن بين قصيدتين لشاعرين موازنة سليمة وهذا النقد يعد جذور للنقد بألوانه المختلفة .

فمنه اللغوي ومنه ما يتعرض لموسيقي الشعر ومنه ما يتعرض للبلاغة أو ما يشير إلي ناحية تاريخية ... إلخ .

إلا أن هــذا النقد غير معلل وكان العرب لم يدركوا بعد مسميات المصطلحات ليذكروها وهذا لا يمنع من كونه اللبنة الأولي والأساسي الذي قام عليه النقد العربى لعصور طويلة . وإيجاز هذا النقد أو عـدم تعليل

(١) الشعر والشعراء ١ : ٢٧٣ دار إحياء التراث

أسباب الجودة والرداءة لا يعيب هـذا النقد فهو ما زال فى مرحلة النشأة والتـكوين وهو صدى لثقافة البيئة ومعارفها المحدودة .

وإذا كانت هـذه الأحكام السريعة دلت فى أكثرها على فطرية النقد وذاتيته فقد ترك لنا العصر الجاهلى المعلقات تلك الآثار الناضجة التى تدل على رقى الفكر العربى .

وقد وصلت إلينا فى شكلها الكامل ونظامها الذى أصبح مثالا للشعر العربى يهتدى به وينسج على منواله شعراء العربية على اختلاف أزمانهم وأوطانهم .

وصورة المعلقات هى الصورة الكاملة للشعر العربى ونظامها وما قامت عليه من أسس وقواعد توضح مقاييس النقد الأدبى . وسار الشعراء فى العصر الجاهلى والاسلامى وما بعد ذلك من عصور على نفس هذا النظام وعابوا من حاول الخروج عليه .

وفى عهد التأليف استخرج النقاد تلك المقاييس ووضعوا على أساسها عمود الشعر(١) : فالمعلقات تعد ثروة شعرية ونقدية للشعر العربى ونقده على من العصور .

---

(١) عمود الشعر حصر المرزوقى عمود الشعر في سبعة أبواب فقال فى مقدمة شرح الحماسة (إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزاله اللفظ واستقامته والاصابة فى الوصف — وفى اجتماع هذه الاسباب الثلاثة كثرت سوائر الامثال وشوارد الابيات — والمقاربة فى التشبيه والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ومناسبة المستعار منـــه للمستعار له ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما) .

النقد الأدبي في عصر صدر الاسلام

نزل القرآن الكريم فبزغت شمس الإسلام وقامت الدولة الجديدة على أساس عبادة إله[١] واحد (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) وهو رب كل شيء في الوجود (ولله ما في السماوات والأرض)[٢] قد أحاط علمه بكل شيء وأحاطت قدرته كل شيء (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة: لا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)[٣]، (إن الله بكل شيء عليم)[٤].

وقد علم الله الناس عن طريق كتابه أن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى فيها بعث وحساب (ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون)[٥] فيجازى كل على ما اقترفته يداه من إثم أو على ما قدم من إحسان وبر وتقى يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[٦].

ودعا الإسلام إلى عقائد وأعمال هي سبيل الإنسان إلى السعادة في الدارين، وإلى أفضل الأخلاق وفاء بالوعد وصبر في الشدائد وعدل مع من أحببت أو كرهت وعفو عند المقدرة.

قال تعالى: (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس)[٧] — (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذي القربى

---

(١) الأنعام آية ١٠٣
(٢) سورة النجم آية ٣١
(٣) الأنعام آيه ٥٩
(٤) التوبة ١١٥
(٥) المؤمنون ١٥، ١٦
(٦) الزلزلة آية ٦ — ٨
(٧) سورة البقرة ١٧٧

وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى)(١) ، (خذ العفو وأمر بالعـــرف وأعرض عن الجـــاهلين)(٢) — (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر وما بطن)(٣) .

هدم الإسلام النزعة القبلية والتعصب الجنسى وكره التفاضل بشرف القبيلة أو شرف الجنس . وقال بأن معتنقى الإسلام كلهم كتلة واحدة لاتفاضل بين أفرادها إلا بطاعة الله جل شأنه وتنفيذ أوامره .

قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)(٤) .

وحتم الطاعة لله وللرسول صلوات الله عليه ولأولى الأمر فى الأمة ما أطاعوا أوامر الله (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمـــر منكم)(٥) .

نزل القرآن الكريم بخاتم الأديان وأفضلها وأرشد إلى أفضل الأخلاق .

اختلف إذن وجه الحيــاة بعد بزوغ شمس الإسلام وقامت الدولة الجديدة على أساس الإلزام بما ورد فى كتاب الله وفى سنة رسول الله ﷺ من أخلاق ومعاملات ، وليس معنى ذلك انها نهت عن الفضائل العربية الجاهلية فالحقيقة أنها حثت على الفضائل وقوتها ونهت عن المعاصى والمآثم وحاربتها .

---

(١) سورة النحل آية ٩٠
(٢) الأعراف آية ١٩٩
(٣) الأعراف آية ٣٣
(٤) سورة الحجرات آية ١٣
(٥) النساء آية ٥٩

وإذا كان الأدب هو صورة الحياة والنقـــد يستخرج من آداب المجتمعات وحياتها فقد التزم النقد فى عصر صدر الإسلام بالأخلاق والدين وفضل رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون الشعر الذى يعتد بالإسلام ومبادئه .

والإسلام بذلك قد غير مفهوم الشعر ووضع له مفهوما جديداً يتفق فى بعض الوجوه ويختلف فى أكثرها عن المفهوم الذى كان له . وكان من الطبيعى أن يسود المفهوم الإسلامى للشعر بين المسلمين وأن يظل المفهوم الجاهلى بين المشركين وشجع رسول الله ﷺ شعراء المسلمين على إنشاد الشعر قال عليه السلام للأنصار (ما يمنع القوم الذين نصروا الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم)[1] وكان يدعو حسان بن ثابت إلى قول الشعر ويعده بتأييد روح القدس إياه ويحسن الاستماع إليه إذا أنشد ويروى عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ بنى لحسان بن ثابت فى المسجد منبراً ينشد عليه الشعر[2] .

فالرسول اتخذ من الشعر سلاحا من أسلحة دعوته وكان له كبير الأثر في الزود عنها وحمايتها وإنتشارها ، وقد صرح عليه السلام بتشجيعه للشعر الذى لا يتنافى والدين .

روى أنه ﷺ قال : إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه ، وقال عليه السلام : إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وطيب[3] .

---

(١) الأغانى ١٣٧/٤
(٢) العمده ٢٧/١ ط التجارية .
(٣) نفسه .

وهذا يفسر لنا ما ورد عنه ﷺ لأن يمتلىء جوف الرجل قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً(١) .

وقوله (إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمته)(٢) .

قال النووى عن النص الأول المراد منه أن يكون الشعر غالبا عليه مستوليا بحيث يشغله عن القرآن أو غيره من العلوم الشرعية .

ويمكن أن نقول أيضا إن هذا النص ينصرف إلى الشعر ذى المفهوم الجاهلى أما النص الثانى فيقول النووى فى شرحه : يريد أن الشعر لا دخل له فى الحسن والقبح ولا يعتبر به حال المعانى الحسن والقبح والمدار هو المعانى على كون الكلام نثراً أو نظما فإنهما كيفيتان للأداء وطريقان إليه ، ولكن المعنى إذا كان حسنا وحكمة فذلك الشعر حكمة وإن كان قبيحا فذلك الشعر كذلك(٤) .

ويمكن أن نقول إن كلامه عليه السلام (إن من الشعر لحكمة) ينصرف إلى الشعر ذى المفهوم الإسلامى .

ويشبه ذلك ما روى من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقى حسان ابن ثابت فى مسجد الرسول ﷺ وهو ينشد شعـــراً فقال له (أرغاء كرغاء البكر)(٥) . بينما كتب إلى أبى موسى الأشعرى (مر من قبلك

---

(١) نفسه ، سنن إبن ماجه باب ما كره من الشعر ، يريه : يفسده .
(٢) سنن ابن ماجه أدب باب الشعر ج ٢ ص ١٢٣٥
(٣) سنن ابن ماجه باب ما كره من الشعر .
(٤) سنن ابن ماجه ج ٢ باب الشعر
(٥) العمدة ٢٨/١ البكر : الجمال .

بتعلم الشعر فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعـــرفة الأنساب)(١) .

فقد عاب عمر بن الخطاب إنشاد حسان ما يتنافى والدين الإسلامى وحث فى الثانى على تعلم الشعر الذى يوافق أخلاق الإسلام .

كانت هذه هى نظرة ولاة الأمر إلى الشعر فى الصدر الأول من الإسلام فما اتبع الدين فهو جيد وما انحرف عنه فهو ردىء .

وقد رويت أمثلة كثيرة توضح هذا الاتجاه الدينى الأخلاقى فى نقد الشعر ومن ذلك :

١ — ماذكر من أن النابغة الجعدى أنشد رسول الله ﷺ :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى
ويتلو كتابا كالمجرة نيراً

بلغنا السماء مجـــدنا وجدودنا
وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

فيسأله عليه السلام وقد أحس أنه يفخر فخر الجاهلية إلى أين يا أبا ليلى ؟ فيقول : إلى الجنة يا رسول الله فيعجب النبى مقاله ويقول : إلى الجنة إنشاء الله .

٢ — ثم إذا أنشده :

ولا خير فى حلم إذا لم تــكن له
بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

---

(١) نفسه المرجع السابق

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له
حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

ناظراً إلى قول الله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وإلى قول رسول الله عليه الصلاة والسلام (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب) ويزداد إعجاب النبي ﷺ به ويدعو له لا يفضض الله فاك[1] .

ومن النماذج التي يتضح فيها استحسان الشعر الملتزم بمبادئ الدين .

٣ — حكم النبي ﷺ على قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

بأنه أصدق كلمة قالها شاعر[2] .

وفى رواية أخرى أن لبيدا أنشد أبا بكر قوله :

ألا كل شيء ماخلا الله باطلا

فقال صدقت ثم قال :

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال : عند الله نعيم لا يزول[3]

وروى أنه استحسن قول طرفة بن العبد :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقد سار الخلفاء الراشدون سيرة رسول الله ﷺ فكان المقياس الأول لجودة الشعر هو التزامه بمبادىء الدين والأخلاق .

---

(١) الشعر والشعراء ١/٤٨

(٢) الأغانى ١٥ ترجمة لبيد

(٣) نفسه وتاريخ النقد ٨٤ ، ٨٥

ومن ذلك ما روى عن عثمان بن عفان أنه كان يستحسن قول زهير:

ومهما تكن عند إمرىء من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وذلك لصوابه وصدق معناه .

أما الكذب والتكلف والمغالاة فهى من السمات المكروهة فى الشعر لتنافيها والأخلاق الإسلامية .

٤ — ولذا كره رسول الله ﷺ التكلف ممثلا فى المغالاة فى أسلوب السجع عند الكهان(١) فأهم مقاييس جودة الشعر صدقه .

٥ — أعجب عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشعر زهير بن أبى سلمى لأنه كان لا يعاظل بين القول ولا يتبع حوشى الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه .

٦ — وفى هذا العصر نمت أسس قضية الموازنة بين الشعراء فقد توقف على بن أبى طالب عن إصدار حكم بالمفاضلة بين الشعراء إلا إذا إتحدت أغراضهم وتشابهت ظروفهم وعرف السابق اللاحق .

روى أن الإمام على بن أبى طالب كان يفطر الناس فى شهر رمضان فإذا فرغ من العشاء تكلم فأقل وأوجز وأبلغ فاختصم الناس ليلة حتى إذا ارتفعت أصواتهم فى أشعر الناس . أقبل علىّ فقال كل شعرائكم محسن ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد فى القول لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك وكلهم قد أصاب الذى أراد وأحسن فإن يكن أحد فضلهم فالذى لم يقل رغبة ولا رهبة . إمرؤ القيس فإنه أصحهم بادرة وأجودهم نادرة(٢) .

---

(١) المثل السائر ٢١٢/١

(٢) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن : ١٣٠

وفى هذا الحكم الأسس والقواعد التى تقوم عليها الموازنة بين الشعراء للمفاضلة بينهم . فالموازنة تعقد بين شاعرين فى نفس العصر ولا تعقد بين شعراء من عصور مختلفة ولا يصح أن تكون فى أغراض متباينة ولا فى مذاهب وطرائق شعرية ، كل منها يتجه فى الإعراب والإبانة وجهة معينة لأن الموازنة حينئذ لا تحقق الغرض المطلوب منها إذ أن كل واحد من الشعراء مع عدم توافر هذه الشروط سوف نجده مصيبا فيما قصد إليه من أغراض الشعر .

ومع هذا فإذا كان لابد من التفضيل ؛ فإن إمرأ القيس أفضل الشعراء والتفضيل هنا مبنى على أساس فنى عام ، قد يرجع إلى الموهبة أساسا وإلى صدق العاطفة والإحساس فإمرؤ القيس لم يقل شعره تحت تأثير الرغبة أو الرهبة أى لم يستجد به عطاء ولم يدفع به أذى فهو لم يتخذه سلعة يتاجر بها ويتكسب من ورائها وهذا هو الصدق المطلوب فى الشعر .

وجانب آخر فى سبب التفضيل هو الإجادة عنـــد الإرتجال ونظم الشعر عفو الخاطر وعند اختراع المعانى وطرقها لأول مرة .

والملاحظات النقدية فى هذا المثال جديدة إلى جانب اتسامها بالدقة فقد استعمل مع الموازنة كلمة أسبق أى أسبق فى شىء ما بالنسبة لشىء آخر ، وعند الإيثار الشخصى لشعر إمرىء القيس استعمل كلمة أفضل التى تعنى الأفضلية العامة ، ثم يرجع ذلك إلى أمور وراء الصياغة والفكرة وهى الصدق فى التجربة وقوة الطبع والموهبة والإجادة فى المعنى المطروق لأول مرة فالأسبقية إذن تكون فى أمور جزئية تعود إلى النص الأدبى والأفضلية تكون فى أمور فنية عامة تستنبط من وراء النص .

وإلى جانب تلك المقاييس الجديدة التى ظهـــرت مواكبة للدعوة الإسلامية استمرت مقاييس النقد الجاهلى مثل الإيجاز والسرعة والارتجال

فى الأحكام وإن بدأت بعض الأحكام يظهر فيها التعليل والإفصاح عن سر الجودة .

وبناء على ما تقدم يمكن أن نقول إن النقد فى عصر صدر الإسلام قد تقدم عن سابقه وظهرت أسس بعض القضايا النقدية كقضية الالتزام والموازنة .

وكذلك وجدنا نقداً للنثر فى استقباح سجع الكهان لما فيه من تكلف ومغالاة .

وفى هذا العصر نرى أن الناقد لم يكن شاعراً وإنما كان فى الغالب من الحكام الذين يشترط فيهم العمل على مصلحة الدين والدنيا وقد كانت عناية أولى الأمر بالشعر من أهم الأسباب التى وجهته هذه الوجه الأخلاقية الدينية .

وهذا الحكم الذى توصلنا إليه بشأن إلتزام الشعر فى عصر صدر الإسلام بالأخلاق والدين يجعلنا نقف لنوضح ظاهرة وجود الغزل فى ثورته الوحيدة فى هذا العصر .

فقد افتتح نفر من الشعراء المخضرمين عدة من قصائدهم بالمقدمة الغزلية يوافق مضمون هذه المقدمة فى أشعارهم الإسلامية مضمونها فى أشعارهم الجاهلية ، وكنا نتوقع أن يصيبه بعض التعديل أو يطرأ عليه قليل من التعديل .

غير أنا لا نظفر بشىء من ذلك عندهم فهم لا يزالون يتغنون بآلام الفراق المحضة ويذرفون الدموع على حبيبة راحلة أو نائية ، ونحن لا نزال

نستبين المقياس الجمالى مستوليًا على أفئدتهم ومنتشراً فى مقدماتهم ، فإن الصفات الحسنة التى استحسنوها وفتنوا بها وأكثروا من ذكرها ، وكأنهم لم ينتقلوا من عصر إلى عصر ولا تحولوا من حياة مادية لاهية إلى حياة عفيفة كريمة أضاء الإسلام جوانبهما وسما بمكانة المرأة فيها ومن أمثلة ذلك مطالع القصائد لحسان بن ثابت شاعر الرسول منها مقدمة قصيدته الميمية التى يفتخر فيها نبلاء المسلمين فى بدر وفيها يصف صاحبته التى تعلق بها قلبه بأنها فتاة منعمة صغيرة ثغرها باسم وريقها عذب كأنه المسك الممزوج بالماء الصافى أو الخمر المعتقة وعجيزتها ضخمة . . إلخ .

وأى فرق بين هذا التمثال الذى نحته حسان لصاحبته وبين أى تمثال نحته شاعر فى الجاهلية .

إنه من النمط الجاهلى فالأعضاء وأشكالها ومحاسنها لا تختلف عما وصف به الشعراء الجاهليون بمحبوباتهم .

وقريب من ذلك مقدمة قصيدة كعب بن زهير اللاتينية والمسماة بالبردة التى أنشدها بين يدى رسول الله ومطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم مبتول   متيم إثرها لم يغد مكبول

فإنه قسمها بين الحديث عن صاحبته وشعوره نحوها وبين وصف مفاتن جسدها .

فذكر فى أولها أن صاحبته ارتحلت عنه وتركته أسيراً لحبها يكابد الشوق ويعانى الصبابة ولا يجد وسيلة إلى السلوى والخلاص ثم وصف

علاقته بها وإنه كان وفيًا لها لا يفكر فى غيرها وكيف أنها كانت تمنيه الأمانى ثم تخدعه وتشكر له وهذه معان طالما كررها الشعراء الجاهليون حتى إذا فرغ من ذلك أخذ يعرض جمالها المادى ، يقول :

وما سعاد غداة الدين إذ رحلوا   إلا أغنُّ غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت   كأنه نهل بالراح معلول
شجت بذى شيم عن ماء مجنية   صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تجلو الرياح القذى عنه وأفرطهُ   من صوب سارية بيضٌ بعاليل

ورأى الدكتور شوقى ضيف أن كعبًا وضع نصب عينيه قصيدة والده القافية وأخذ يحاكيها ويستعير بعض معانيها .

أما كارل نالينو فيسم قصيدته كلها بميسم الجاهلى .

وأزرى أن اتباع الشعراء المخضرمين لهذا النظام فى قصائدهم ربما يرجع إلى :

١ - أن هذا الأسلوب أسلوب فنى ينبغى للشاعر أن يصف به محبوبته فى مقدمة قصيدته .

٢ - أن بعض هذه المقدمات وضعت فى العصر الجاهلى وعند التدوين ضمت على ما نظمه الشاعر فى عصر صدر الإسلام .

وبالنسبة لقصيدة كعب على وجه الخصوص والتى استحسنها رسول الله ﷺ فهى تدل على تسامح الرسول وعفوه عن كعب حين أهدر الرسول دمه وأذن لمن يراه أن يقتله ويريح من آثار كفره وقذر لسانه فتحركت العاطفة الطيبة فى نفس بجير شفقًا على أخيه وحبًا

لإبعاده عن الدرك الأسفل من النار فكتب إليه بما تقرر من شأنه ونصحه أن يأتى رسول الله تائبًا طالبًا عفوه وصفحه ، وفى نفس الوقت رفض قومه أن يجيروه فقدم إلى المدينة مستجيراً بأبى بكر .

ويروى أنه أتى إلى رجل من جهينة فجاء به إلى رسول الله ﷺ وهو ملتثم بعباءته والرسول لا يعرفه فقال له كعب : يا رسول الله رجل جاء يبايعك على الإسلام وحسر عن وجهه وقال هذا مكان العائذ بك أنا كعب بن زهير فوثب رجل من الأنصار مستأذنًا أن يضرب عنقه فمنعه النبى وآمنه فأنشد قصيدته المشهور فى مدح النبى والذين هاجروا معه من قريش ثم مدح الأنصار .

وعلى الرغم من المقدة الطويلة التى تغنى فيها الشاعر بسعاد فلم يغضب الرسول لأنه كان من الفطنة والإحاطة بأحاسيس الشعراء ما جعله يدرك غلبة التقاليد الفنية وعدم القدرة على الفكاك من سلطانها بسهولة ثم إن رحابة صدره كانت تجعله يأخذ الناس على قدر تفكيرهم ويدرك أن هذا الاستهداء مجرد نموذج فنى يقصد لذاته .

فالشعراء المسلمون الذين داروا فى هذه التقاليد الفنية الموروثة كان إيمانهم قويًا .

ونرى تأثرهم بالقرآن الكريم نصًا وروحًا فى كثير من أشعارهم .

ولكن اتصال عصر صدر الإسلام بالجاهلى ولأن أكثر الشعراء عاشوا فى الجاهلية وربما أكثر مما عاشوا فى الإسلام جعل أصالة التقاليد الفنية تتمكن من نفوسهم وترسخ فى أعمالهم . وقد أدرك الرسول ﷺ ذلك فلم يغضب من كعب وعفا عنه وخلع عنه بردته .

النقد فى عصر بنى أمية

من المعلوم أن الأدب ينمو ويزدهر فى ظل الصراعات والوان التنافس وقد اتسم عصر بنى أمية بهذه الصفات ففية اختلفت السياسة عنها فى الصدر الأول من الإسلام وفيه كثرت الصراعات والنزاعات على الحكم وفيه تعددت الأحزاب وأحييت العصبيات .

وفيه أيضا مزايا أدت إلى رقى الأدب وعمق الفكر حيث بدأ يتسع اتصال العرب بغيرهم من الأمم فتعرفوا على حضارتها وتأثروا بثقافاتها وفى هذا العصر كان الإسلام قد تمكن من النفوس .

وعلى الاجمال نستطيع أن نقول إن حياة العرب فى هذا العصر اختلفت اختلافا كبيرا عن العصر الجاهلى والصدر الأول من الإسلام . وكان لهذه أثره الكبير على الأدب ونقده .

وفى هذا العصر كان لمربد البصرة من الشأن فى حياة الشعر واصطراع الشعراء على السبق والغلبة مثل ما كان لعكاظ فى الجاهلية فحى الشعر إيما حياة ولم يقف الأمر عند الإنشاد فى المجامع والأسواق بل تعداها إلى مجالس الخلفاء(١) .

كانت العناية بالشعر كبيرة فكثر متذوقوه وعنى بنقده فى مجالس متعددة خاصة أو عامة للجد أو للهو وكان لهذه المجالس أثر كبير فى تطور النقد الأدبى على الرغم من أنها كانت مطبوعة بطابع العجلة والارتجال والايجاز والنظرة الجزئية ومتابعة هوى صاحب المجلس .. الخ من الأسباب التى تجعل هذه الأحكام فى ذاتها لا تضيف إضافة قوية الى النقد فى العصور

---

(١) دراسات فى نقد الأدب العربى الى نهاية القرن الثالث : ٩٩

السابقة . أما السر فى أهمية هذه المجالس بالنسبة للنقد فيرجع الى(١) :

١ — أنه لا ينبغى للمتعرض لتاريخ النقد الأدبى عند العرب أن يغفل تلك الحلقة الهامة من سلسلة دراسته تتميما للنهج التاريخى الذى يقتضى ألا يمر الدارس بفترة من الفترات أو بظاهرة من الظواهر من غير أن يدل عليها ويشير الى قيمتها بالغة ما بلغت .

٢ — أن تلك الآراء ليست كلها على ذلك النحو الذى بدا مطبوعا بطابع السرعة والارتجال بل إن فى كثير منها الحكم الصادق المؤيد بالحجة الواضحة .

٣ — ثم لها ما هو أهم من وذاك وهو أن تلك المجالس كانت معرضا لفنون القول ، وكان الأدباء يضطرون فيها الى إصدار الأحكام المرتجلة المتأثرة بشعور الرؤساء أو بعواطف القائلين أحيانا ولكنها هى التى أوحت الى العلماء والنقاد أن يخلوا الى أنفسهم وأن يدرسوا الأدب ونصوصه دراسة مستفيضة ويوازنوا تلك النصوص بنظائرها ويستخلصوا منها عناصر الجودة أو مظاهر الضعف ، ثم يعمدون أخيراً الى بسط آرائهم فى كتب مدونة وآثار محفوظة لا يزال يعتد بها الباحثون الى اليوم ويعرفون منها آراءهم واتجاهاتهم فى نقد الأدب وتذوقه .

وقد تمثلت اتجاهات النقد فى عصر بنى أمية في اتجاهين :

الأول : ما قام به الأدباء من شعراء و كتاب و خلفاء .

والثانى : ما قام به العلماء من نحويين ولغويين .

وكان نقد الأدباء قائما على الذوق والإحساس وعلى الطبع والسليقة

---

(١) السابق ١٠١

وهذا الاتجاه يعد امتداداً للنقد الذى بدأ منذ الجاهلية . وتأثره بالعلم كان قليلا .

وأما العلماء فكان نقدهم يقوم على أسس وقواعد موضوعية خاصه بخصائص اللغة والقواعد السليمة لعلومها .

وكانت العناية بعلوم اللغة لا سيما النحو قد ظهرت فى هذا العصر نتيجة لفشو اللحن فى بعض البيئات فكانت مسارعة العلماء الى وضع القواعد التى تصون الألسنة من الانزلاق نحو التحريف .

وقد اتخذ العلماء من الشعر مادة موثقة يستقون منها الأمثلة والشواهد التى يؤسسون عليها ما أستنبطوه من قواعد اللغة .

ومن خلال ذلك عرفوا ما كان مخالفا لهذه القواعد فنقدوه وكشفوا عن وجوه الخطأ فيه .

ونعود الى ملامح النقد عند كلا الفريقين(١) .

أما عند الأدباء فقد تنوعت هذه الملامح بين نقد للشعر ذاته فى صياغته ومعانيه وبين نقد للشاعر من حيث عاطفته وإحساسه ومن حيث مذهبه وطريقته فى بناء الشعر وبين نقد للشعراء مجتمعين من خلال الموازنات الأدبية التى تجرى بينهم حين يجمعهم مذهب فنى واحد :

(أ) فمن أمثلة النقد الذى يعود الى صياغة الشعر ما عابه عبد الملك بن مروان حين دخل على الشاعر أرطأة من سهية فسأله : ما بقى من شعرك: فقال ما أطرب ولا أحزن يا أمير المؤمنين وانما يقال الشعر لأحدهما ولكنى قد قلت :

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب طه إبراهيم ٤٣

رأيت الدهر يأكل كل حى ... كأكل الأرض ساقطة الحديد
وما تبقى المنية حين تغدو ... سوى نفس ابن آدم من مزيد
وأحسب أنها ستكر يوما حتى ... توفى نذرها بأبى الوليد

فقال له عبد الملك: ما تقول ثكلتك أمك؟ فقال: أنا أبو الوليد يا أمير المؤمنين، لكن عبد الملك كان يكنى بأبى الوليد . ومن هنا كان نقده له وكراهته لشعره الى أن مات(١) .

وقد وضع النقاد فيما بعد الأسس التى يستجاد بها شعر المدح ومنها ألا يستهل الشاعر قصيدته بما يتطير منه وكان هذا سبب كراهية عبد الملك للشعر السابق

(ب) ومما يمثل به فى نقد المعانى قول جرير يهجو الأخطل :

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة ... لو شئت ساقكم الى قطينا

حيث قيل له : لم تصنع شيئا أعجزت أن تفخر بقومك حتى تعديت الى ذكر الخلفاء ؟.

وقال عنه الوليد بن عبد الملك : أما لو قال لو شاء ساقكم إلى قطينا لفعلت ذلك ولكنه قال :

لوشئت فجعلنى شرطيا له(٢)

ومن هذا القبيل قول ذى الرمة يمدح بلال بن أبى بردة .

رأيت الناس ينتجعون غيثا ... فقلت لصيدح انتجعى بلالا

---

(١) عيار الشعر ابن طباطبا ١٢٣

(٢) الموشح ١٩١ وفى عيار الشعر ، ٩ ينسب النقد الى عمر بن عبد العزيز

وصيدح اسم ناقة ذى الرمة ، فلما سمع بلال هذا المدح قال : يا غلام إعلف ناقته قتا ونوى أراد بذلك قلة فطنة ذى الرمة للمدح .

فهم قد فطنوا إلى ما يجب أن يتوفر من معان وخصائص لجودة بعض فنون الشعر فمثلا فطنوا إلى المعانى المستحبه فى قصائد المدح والمعاني التى يجب أن يبتعدوا عنها وذلك يتضح من استحسانهم او استهجانهم لبعض ما جاء فى المديح كما تنبهوا إلى أن ما يستحب فى موضوع قد يستهجن فى آخر فالرقة والسهولة والمذلة فى شعر الغزل والقوة والرصانه فى الفخر والمديح .

ومن ادراكهم لمذاهب الشعراء نقد كثير عزة لعمر بن ربيعه بقوله أنت تنعت المرأة فتنسب بها . ثم تدعها وتنسب بنفسك أخبرنى يا هـذا عن قولك :

قالت : تصدى له ليعرفنا ... ثم أغمزيه يا أخت فى خفر
قالت : قـد غمزته فأبى ... ثم اسبطرت تشتد فى أثرى(٢)

أتراك لو وصفت بهذا حرة أهلك ألم تكن قد قبحت وأسأت وقلت الهجر وإنما توصف الحرة بالحياء والإباء والالتواء والبخل والامتناع .

ووصف الفرذدق جريرا بقوله: ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعرى وما أحوجنى إلى رقة شعره لما ترون(٣) .

— وكانت الموازنات بين الشعراء غالبة على نقد الأدباء سواء فى الحجاز أو العراق أو الشام . ومن أمثلة ذلك ما روى فى الأغانى قال هشام بن

(١) الموشح : ٢٧٩
(٢) الأغانى : ١١٥/١٢
(٣) الشعر والشعراء ٩٤/١

عبد الملك لشعبة بن عقال ، وعنده جرير والفرزدق والأخطل ألا تخبرني عن هؤلاء الذين مزقوا أعراضهم أيهم أشعر ؟ فقال شعبة : أما جرير فيغرف من بحر وأما الفرزدق فينحت من صخر وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر .

فقال هشام : ما فسرت لنا شيئاً نحصله ، صفهم لنا يا بن الأهتم فقال : أما أعظمهم فخرا وأبعدهم ذكراً وأحسنهم عذرا وأسيرهم مثلا وأقلهم غزلا وأحلاهم عللا الطامي إذا زخر ، والحامي إذا زأر ، والسامي إذا خطر الذي أن هدر قال وأن خطر صال ، الفصيح اللسان الطويل العنان فالفرزدق .

وأما أخشنهم نعتا وأمدحهم بيتا وأقلهم فوتا الذي إن هجا وضع وأن مدح رفع فالأخطل . وأما أغزرهم بحرا وأرقهم شعرا وأهتكهم لعدوه سترا الأبلق الذي أن طلب لم يسبق وأن طلب لم يلحق فجرير — وكلهم ذكى الفؤاد رفيع العماد وارى الزناد(١) .

والموازنة السابقة عامة سريعة غير تفصيلية لا توضح أسباب التفضيل ولا تعمد إلى تعليل الاحكام . وأهميتها ترجع إلى كونها حلقة ومرحلة مرت بها قضيه الموازنة بين الشعرء تبعتها خلقات أخرى إلى أن اكتملت أصولها وقواعدها .

ويجب أن نلاحظ أن النقد فى عصر بنى أمية عنى بطبيعه الاغراض والموضوعات وما يلائمها فما يستحب فى الغزل لا يستحب فى الفخر أو فى مديح الابطال . وقد اختصت بيئة الحجاز بالغزل ونقده ، أما بيئة الشام فكان جل اهتمامها موجها إلى العناية بشعر المديح وأما العراق فقد شغل بالمفاضلة والموازنة بين شعراء الهجاء والنقائض .

---

(١) الأغانى ٨١/٨

كما أن الشام كان معرضًا لفنون القول على اختلاف أنواعه وألوانه وقد كان الشعراء يفدون على عاصمة البلاد لمدح الخلفاء وحضور مجالسهم التى عنوا بها عناية كبيرة بالشعر ونقده والموازنة بين الشعراء . وكان مجلس عبد الملك بن مروان أكثر هذه المجالس أهمية للشعر والنقد .

ومن ذلك أنه اجتمع فى مجلسه جرير والفرزدق ، فقال الفرزدق النوار بنت مجاشع طالق ثلاثًا إن لم أقل بيتًا لا يستطيع ابن المراغة أن ينقضه أبدًا ولا يجد فى الزيادة عليه مذهبًا . فقال عبد الملك : ما هو : قال :

فإنى أنا الموت الذى هو واقع بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله
وما أحد يا بن الأتان بوائل من الموت ، إن الموت لا شك نائله

فأطرق جرير قليلاً ، ثم قال : أم حرزة طالق منى ثلاثًا إن لم يكن نقضته وزدت عليه فقال عبد الملك : هات فلقد طلق أحدكما لا محالة فأنشد :

أنا البدر يغشى نور عينيك فالتمس بنكفيك يا بن القين هل أنت نائله
أنا الدهر يفنى الموت ، والدهر خالد فجئنى بمثل الدهر شيئًا يطاوله

فقال عبد الملك : فضلك والله يا أبا فراس وطلق عليك(١) .

كان هذا نقد الأدباء ومتذوقى الأدب وهو يعتمد كثيراً على الذوق والفطرة ويعنى بالمفاضلة بين الألفاظ والمعانى .

---

(١) الشعر والشعراء والأغانى ٢١ / ٣٥٥ ، ٣٥٦ مع اختلاف بسيط فى الرواية .

وقد شاركت المرأة فى عصر بنى أمية فى صناعة الأدب فولعت بالشعر والأدب والبيان فكان منهن الشاعرة والناقدة ، وتألقت أسماء سيدات فضليات فى الحياة الأدبية فكانت عائشة بنت طلحة (وأمها أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق وخالتها عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها) .

ذكر صاحب الأغانى أنها وفدت على هشام بن عبد الملك فقال لها : ما أوفدك ؟ قالت : حبست السماء المطر ، ومنع السلطان الحق . قال : فإنى أمل رحمك وأعرف حقك ثم بعث إلى مشايخ بنى أمية . فقال : إن عائشة بنت طلحة عندى فاسمروا عندى الليلة . فحضروا فما تذاكروا شيئًا من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه وما طلع نجم ولا غار إلا سمته . فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت : أخذتها عن خالتى عائشة . فأمر لها بمائة ألف درهم وردها إلى المدينة[١] .

وذكر صاحب الأغانى كانت تنقد شعراء الغزل فى معيتهم فنقدت البحترى والحارث بن خالد المخزومى .

وكذلك كان عمرة الجمحية التى كان يهواها أبو دهبل الجمحى الشاعر ، وروى صاحب الأغانى أنها كانت امرأة جزلة يجتمع إليها الشعراء للمحادثة ، وانشاء الشعر والأخبار[٢] .

---

(١) الأغانى ١١/١٨٩ - ١٩٠ .
(٢) الأغانى ٧/١١٦ .

وكانت السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله محبة للشعر كما كانت ناقدة ألقى إليها مقاليد الحكم بين أمراء الفن فى الشعر والغناء فى عصرها . وقد فرضت شخصيتها الفريدة وبهرت عصرها بذوقها الفنى الأصيل الذى هيأ لها أن تكون ذات بصر دقيق بفن القول وفقًا لأسرار العربية فى الأداء[١] . كما كانت الأصالة هى الطابع المميز لها ذوقًا وحسًا وأوافق د. بنت الشاطئ فى مكانة السيدة سكينة النقدية كانت ترجع إلى سيطرتها الأدبية كانت لذوقها وثقافتها ولم تكن خضوعًا لجمالها كما رأى د. زكى مبارك . كذلك لم يكن شرفها العالى هو الذى ألقى إليها مقاليد الحكم الأدبى وأخضع لها الشعراء وإلا لشاركتها فى مكانتها هذه أختها فاطمة وبنات عمها الحسن حفيدات السيدة فاطمة الزهراء وسليلات النبوة . كانت سيطرتها الحقيقية ترجع إلى علو كعبها فى تذوق الشعر وإدراكها البصير لمواطن التأثير ودوافع القول وأسرار البلاغة والبيان . ولولا أنها كانت نادرة عصرها بصراً بالشعر وفقهًا للعربية لما اعترف لها التاريخ الأدبى بمثل تلك المكانة وهو الذى أسقط شعرها من ديوان الأدب وجحد شاعريتها وشاعرية الإناث مثلها إلا أن تكون راثية[٢] .

كانت سكينة ناقدة عصرها أو كما يطلق فى عصرنا الحديث صاحبة صالون أدبى وأخبار حكمها على الشعراء تدلل على دقة نقدها وعلو مكانتها بين أدباء عصرها وأخبارها ومجالها فى كتاب الأغانى

---

(١) تراجم سيدات بيت النبوة ، ١٠٨٠ .
(٢) تراجم سيدات بيت النبوة ، ١٠٣٠ .

لأبى الفرج الأصفهانى الجزء الثالث . ومن أمثلة ذلك ما رواه من أن جريراً والفرزدق وكثيراً ونصيباً اجتمعوا فى ضيافة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما فمكثوا أياماً ثم أذنت لهم فدخلوا عليها فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامه ، ثم أخرجت وصيفة لها قد ردت الأشعار والأحاديث فقالت أيكم الفرزدق ؟ فقال : ها أنذا . قالت أنت القائل :

هما دلتاني من ثمانيهن قامة	كما انحط باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى بالأرض قالتا	أحي يرجي أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا	وأقبلت في اعجاز ليل أبادره
أبادر بوابين قد وكلابنا	وأحمر من ساج تبقي سامرة[١]

قال : نعم . قالت : فما دعاك إلى إفشاء سرك وسرها هلا سترت عليك وعليها ، خذ هذه الألف وألحق بأهلك ثم دخلت على مولاتها وخرجت برسالتها فقالت : أيكم جرير ؟ قال : ها أنذا . قالت : أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا	وقت الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك علي أعز كأنه	برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذى حدثتنا	لو وصلت ذاك وكان غير لمام
إني أواصل ولم أردت وصاله	بحبال لا صلف ولا لوام

قال : نعم . قالت : أو لا أخذت بيدها وقالت لها ما يقال لمثلها أنت عفيف وفيك ضعف خذ هذه الألف وألحق بأهلك . ثم دخلت إلى مولاتها وخرجت فقالت : أيكم كثير ؟ قال : ها أنذا . قالت : أنت القائل :

(١) الأبيات بالديوان ١ / ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ بترتيبيخالف ما ورد بالأغانى .

فـــوالله مـــا يدرى كـــريم مماطل أينســـاك إذ باعـــدت أو يتـــضـــرع
وأعـجـبنى يا عــز منك خــلائق كـــرام إذا عـــد الخــــلائق أربع
دنوك حتى يطمع الطالب الصبا ودفعك أسـبـاب المنى حين يطمع
وقطعك أسباب الكريم ووصلك الـ لئـــيـم وخـــلات المكارم ترفع

قـال : نعم . قـالت : ملحن وشكلت خذ هذه الثـلاثة آلاف وألحق بأهلك . ثم دخلت على مولاتها وخرجت . فقالت : أيكم نصيب ؟ قال : ها أنذا . فقالت : أنت القائل :

ولولا أن يقـال صـعـبًـا نـصـيب لقلت بنفـسى النشـأ الصـغـار
بنفـسى كل مـهـضـوم حـشـاها إذا ظلمت فليس لهـا انتـصـار

قال : نعم . فقالت : ربيتنا صغاراً ومدحتنا كباراً خذ هذه الألف وألحق بأهلك . ثم دخلت إلى مولاتها وخرجت . فقال : يا جميل مولاتى تقرئك السلام وتقول لك : والله ما زالت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شـعـرى هل أبيتن ليلة بوادي القـري إني إذن لسـعـيـد
لكل حـديث بينهن بشـاشـة وكل قـتـيـل بينهن شـهـيـد

جعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء خذ هذه الألف وألحق بأهلك(١) .

- أما النقد عند العلماء فكان يغلب عليه الموضوعية الجزئية وكان متنوع الاتجاهات فمنه ما ينصرف إلى ضبط الشعر وإعرابه ومنه ما يتجه

---

(١) الأغانى ١٦/ ١٦١ - ١٦٣ .

إلى أوزان وقوافيه . الخ .وقد عنوا بتدوين ماقيل فى نقدالشعر والشعراء وأضافوا إلى ذلك آراؤهم . وهذا بالإضافة إلى تدوين الشعر ذاته وتلقيه من أفواه أهل البادية والاعراب . ومن أجل ذلك وضعوا الضوابط والقيود حول مايقبل ويردمن الرواة . وكانوا بذلك يضعون أسس توثيق النصوص الادبيه ، وكانت سلامة أذواقهم وفراستهم تجعلهم يدركون صحيح الشعر من زائفة واهتدوا من وراء ذلك إلى إدراك صلة الشعر بقائله وصلته بالبيئة التى عاش فيها . وكل هذا أدى إلى تطور النقد خطوات .

ومن النقد اللغوى تخطئه عبد الله بن اسحاق الحضرمى للفرزدق فى بعض شعره من مثل :

فلوكان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

حيث أبق الياء فى (مواليا) فى حال الجر والقياس موال(١) وفى قوله :

اليك أمير المؤمنين رمت بنا هموم المنى والهوجل المتعجل

وعض زمان يا بن مروان لم يدع

من المال الا مسحتا أو مجلف

فقال له ابن أبى اسحاق : على أى شىء ترفع مجلف ؟ فقال : على ما يسوؤك وينوؤك . قال أبو عمرو بن العلاء فقلت للفرزدق : أصبت وهو جائز على المعنى أى أنه لم يبعد سواء(٢) .

---

(١) الوساطة : ٩

(١) نزهة الالباء فى طبقات الادباء : ٦٥

- وظهر فى نقد العلماء بوادر الخصومة بين أنصار القديم والحديث وذلك لحرصهم على سلامة ما يضعون من قواعد - سئل الأصمعى عن جرير والأخطل فقال : هؤلاء لو كانوا فى الجاهلية لكان لهم شأن، وقال أبو عمرو بن العلاء فى الأخطل: لو أدرك الأخطل من الجاهلية يوما ما قدمت عليه جاهلياً ولا إسلامياً(١) .

- ومن أمثلة تعرفهم على قضية الطبقات ووضع بعض الشعراء فى طبقة واحدة قول الأصمعى عن عنترة والزبرقان بن بدر وخفاف بن ندبة هؤلاء أشعر الفرسان ، ومثلهم عباس بن مرداس(٢) .

- كما أدركوا الفن الشعرى الذى ينبغ فيه الشاعر حتى يعرف به ويصير علما عليه ، يقول الأصمعى ذهب أمية بن أبى الصلت بعامة ذكر الآخرة وعنترة بعامة ذكر الحرب ، وذهب عمر بن أبى ربيعة بعامة ذكر النساء(٣) .

كذلك كثرت الموازنات بين الشعراء، ومن ذلك ما رواه حماد الراوية قال أنشدنى الفرزدق يوما شعراً له .

ثم قال لى : أتيت الكلبى؟ يعنى جريراً ، قلت نعم قال : أفأنا أشعر أم هو ؟ قلت أنت فى بعض وهو فى بعض ، قال : لم تناصحنى ؟ هو أشعر منك إذا أرخى خناقه وأنت أشعر منه إذا خفت أو رجوت ، قال : قضيت لى والله أعلم ، وهل الشعر إلا فى الخير والشر(٤) .

وأما إدراكهم صلة الشعر بقائله أو بيئته التى نبت فيها فقد تنبهوا لذلك

---

(١) فحولة الشعراء :٢٣ الأصمعى .

(٢) نفسه : ٢٧

(٣) نفسه : ٣٥

(٤) الأغانى ٢١/٣١١ بيروت .

من طول ممارستهم للشعر والنظر فيه ، ففي الأغاني أن حمادا الراوية أنشد بعض ممدوحيه شعراً على أنه له ، وكان ذو الرمة حاضرا فأنكر أن يكون هذا الشعر لحماد فاعترف حماد بأنه للقدماء وحين سئل كيف اكتشف هذا الادعاء ، قال : (عرف كلام أهل الجاهلية من أهل الإسلام)(١) .

وهكذا نستطيع أن نقول إن العلماء في عصر بني أمية قد وجهوا النقد وجهة موضوعية وخطا بفضلهم خطوات نحو التقـــدم ، كما أنهم مهدوا للتأليف فيه وفي نشأة قضاياه وتطورها .

(١) الأغاني ٦/٨٨ .

النقد فى العصر العباسى أو طور النهضة والتاليف

قامت الدولة العباسية ١٣٢ هـ ، وامتدت حياة هذه الدولة قرابة الخمسة قرون وفيها تطور النقد الأدبى وازدهر وكثرت مؤلفاته ونمت قضاياه .
ويعد النقد فى القرن الثانى الهجرى امتداداً النقد فى العصر الأموى ثم جدت عوامل كان لها تأثير مباشر على النقد الأدبى وأدت إلى تطوره ، وأهم هذه العوامل :

أولا : تطور الدراسات القرآنيـــة . فقد كان للعناية بدرس وجوه الإعجاز أثره فى تطور النقد وقضايا البيـان ، فتعرض العلماء للبحث فى متصرفات الخطاب وترتيب وجوه الكلام وما تختلف فيه طرق البلاغة وتناولوا أسلوب القرآن وجوانبه البيانيه وحاولوا إثبات إعجازه البيـانى بموازنته بالشعر العربى ، فاستخدموا وسائل النقاد ومقاييسهم لإثبات ذلك ، ومن ثم اختلطت مقاييس النقد بالدراسات القرآنية واستخدم علماء الإعجاز مصطلحات البديع وأبواب فى كشف بديع الأسلوب القرآنى ، ويفسر لنا هـذا اتصال البلاغة فى نشأتها بالدرس القرآنى لبيان إعجاز القرآن الكريم .

ثانياً : الثقافات الأجنبية :

أدى اتصال الأدباء والنقاد بالفلسفة والمنطق اليونانيين إلى الاتجاه بالنقد إلى العلل والقياسات ومنذ ترجم كتاب الشعر لأرسطاليس(١) ، وضعت التعاريف والتقاسيم والاصطلاحات ، كالأخذ بتقسيمات المنطق وروعة

---

(١) ترجمة متى بن يونس القنائى ت ٣٣٨ فى أوائل القرن الرابع .

العلم فكان نقدا علمياً ينظر إلى الصحة قبل الفن والعقل قبل الذوق(١) فقدامة بن جعفر أخذ بتعريف علماء العروض والقافية للشعر وحلل هذا التعريف تحليلا منطقياً على حسب ماجرى عليه المنطق فى المعرفات،وحصر الشعر فى اللفظ والمعنى والوزن والقافية وهى أجناس الشعر المفردة التى يتركب منها أربعة أجزاء مؤلفة منها،ثم يبحث عن كل جنس من هـــذه الأجناس الثمانية محددا نعوته التى يمدح بها عيوبه ومساويه .

كما نجد تأثره بأرسطو فى تقسيمه الشعر إلى مديح وهجاء وإرجاعه إليهما كل فن من فنون الشعر .

كما يبدو تأثره باليونان فى حديثه عن أصول الفضائل الأربعة وما يترتب عنها ، ورفض المدح بالصفات الجسدية إلا عرضا وطبيعة الشاعر،فالشاعر الخير يمدح الأخيار وهذا ما نجده عند أرسطو(١) .

وكتاب قدامة ملىء بهذه الآراء المأخوذة عن المنطق اليونانى وعن كتاب الشعر لأرسطاليس .

وقد تأثر أبو هلال العسكرى صاحب الصناعتين والمتوفى سنة ٣٩٥ ، ببعض آراء قدامة على الرغم من أنه نص فى مقدمة كتابه على أنه لم يسلك فى كتابه مذهب المتكلمين وإنما قصد فيه قصد الأدباء من الشعراء والكتاب(٢) . فمن ذلك أن تابع قدامه فى جعله الفضائل الأربع أصولا للمدح(٣) .

---

(١) كتاب أرسطاليس فى الشعر ٣٨ ، نقد الشعر لقدامة .
(٢) الصناعتين : المقدمة .
(٣) نفسه : ٩٦

٣ – ظهور المذهب البيانى :

ومن أهم التيارات التى أثرت فى تطور النقد ظهور المذهب البيانى الذى يهدف إلى التأنق فى رسم الصورة الأدبية ، ويبحث عن وسائل البديع التى تجمل بها الصورة والتى كثرت فى شعر المحدثين وكانت مظهراً من مظاهر التجديد التى حاولوا بها إبراز نتاجهم الأدبى من خلالها .

وقد كان النقاد قبل ظهور المذهب يقيسون الأدب بما فيه من قوة المعانى وفخامتها ونبالة الأغراض ، أما الألفاظ والأساليب فلم تتجاوز النظرة إليها جانب الصحة والسلامة والدقة فى الأداء اللغوى .

وقد ظهرت هذه الملاحظات البيانية قليلة فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام وكثرت فى عصر بنى أمية وهذه الملاحظات البيانية هى الأساس الذى وضع عليه البلاغيون قواعدهم وأصولهم .

وقد عنى أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت ٢٥٥ بمشاكلة اللفظ والمعنى فرأى ، أن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته وسهولة المخرج وفى صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير[1] .

والجاحظ بهذا الاتجاه وضع مذهبا جديدا فى نقد الأدب العربى وهو مذهب الصناعة ، حيث يقوم العمل الأدبى على ما به من صناعة وهو يقصد بذلك أن فنية التعبير هى أهم مقومات الأدب .

فالجاحظ يرى العناية بالصياغة وتفضيل اللفظ مع العناية بالمعنى ، لأن

---

(١) الحيوان ٣/٤٠، ٤١ ط سامى .

الألفاظ للمعانى (كالعرض للجارية الحسناء التى تزداد حسنا فى بعض وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذى أبرز فيه)(١) . فالصياغة هامة جدا فى صناعة الأدب ومع هذا (فلا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معنـاه) .

وقد تناول الجاحظ بعض وسائل التصنيع فذكر البديع كما تحدث عن السجع والازدواج وعرض بعض المصطلحات البلاغية كالإيجاز والإطناب والاستعارة والكناية والمجاز .

ومن هنا يمكننا أن نعد كتاب البيان والتبيين أول محاولة لتأسيس علم البلاغة تأسيساً يقوم على الحساسة الفنية دون جنوح إلى التعقيد العلمى الجاف)(٣) .

ويبدو الاتجاه البيانى عند أبى العباس محمد بن يزيد المبرد النحوى ت ٢٨٥ هـ فى كتابه الكامل فقد عرض فيه ضروباً كثيرة من فنون القول عند العرب كالإطناب والإيجاز والتشبيه الذى يعد من أهم بحوث الكتاب حيث جمع فيه بين الرواية والشرح والنقد)(٤) .

وقد اتجه أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب ت ٢٩١ بنقده للفن الأدبى على أساس ما حوى من وسائل الصنعه وتناول فى كتابه (قواعد الشعر) بعض الفنون البلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية وحسن الخروج ومجاوزة الأضداد والمطابق (وهو يعد من الرواد الذين اتجهوا إلى الدرس البلاغى) .

---

(١) عيار الشعر : ٨ (٢) الصناعتين : ٥٧
(٣) اتجاهات النقد الأدبى فى القرن الخامس الهجرى ص ٢٣
(٤) نفسه : ٢٤

وكذلك عنى أبو العباس عبد الله بن المعتز ت ٢٩٦ هـ بفنون البديع واستخراجها من الآثار الأدبية وهو يذكر من فنون البديع الرئيسيه خمسة فنون هي الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد أعجاز الكلام على ماتقدمها والمذهب الكلامي ، ثم يتبع هذه الفنون بفنون أخرى تضاف إليها أسماها محاسن الكلام والشعر منها الألتفات والاعتراض والرجوع وحسن الخروج وتأكيد المدح وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن التضمين والتعريض والكناية والإفراط فى الصنعة وحسن التشبيه ولزوم مالا يلزم وحسن الابتداء .

وأبو الحسن بن أحمد محمد بن إبراهيم بن طباطبات ٣٢٢ هـ خطا خطوه نحو التحديد والتقسيم بحديثه عن الصورة والحركة والصوت فى التشبية وعن امتزاج المعانى بعضها ببعض كما تحدث عن الإبتداء بما يحسن السامع ينقاد إليه القول قبل استتمامه والتعريض والاختصار والإغراق وحسن الإبتداء(١) .

وهكذا عنى النقاد بالصياغة ووضعوا أسسها وقواعدها التى تكفل للعمل الجودة والإبداع .

وقد طالب النقاد الشعراء بالاقتصاد فى المحسنات البديعيه لأن الإكثار منها يؤدى بصاحبه إلى التهلكة (٢) .

فالشعر يكون له وقعه فى النفس لما فيه من أصاله وصدق وسهولة المأخذ وقرب التناول لا بما فيه من بديع وصنعة .

---

(١) عيار الشعراء . ١١ ومابعدها
(٢) الموازنة : ٨

٤ — طبقات الشعراء :

وكان لتقسيم الشعراء إلى طبقات أثر فى تطور النقد الأدبى خطوات فقد وضعوا الأسس التى يفاضل على أساسها بين الشعراء . واختلف موقف النقاد تجاه وضع الشعراء فى طبقات أو الانتصار لمجموعة من الشعراء دون غيرهم . وأهم أسباب هذا الاختلاف هو موقف النقاد من القديم والتعصب له أو الانتصار للمحدث وانصافه ويبدو الانتصار للقديم عند الأصمعى ت ٢١٦ هـ الذى يرفض أن يقول فى جرير والفرزدق شيئا لأنهم إسلاميون ولم يضع الأصمعى مقاييس محددة واضحة يتخذ منها أساساً لترتيب شعرائه (١)

وأما أبو عبد الله بن سلام الجمحى ت ٢٣٢ هـ فقد قسم شعراءه قسمين كبيرين جاهليين وإسلاميين وجعل كل قسم عشر طبقات وكل طبقة أربعة شعراء متكافئين فى رأيه والأساس الذى اعتمد عليه فى ترتيبه شعرائه هو المقدرة الفنية التى تبدو فى الكثرة وتعدد الأغراض التى يقول فيها الشاعر (٢) وكذلك قسم الشعراء بحسب الموضوع الذى قالوا فيه فتحدث عن أصحاب المراثى (٣) وجمع طبقات الشعراء من أبناء أقليم واحد وقصر ابن المعتز كتابه (طبقات الشعراء) على المحدثين وبين فضلهم ومدى اهتمام الناس بأشعارهم ، ورتب شعراءه فى مجموعات على حسب اتجاهاتهم فى نظم الشعر وموضوعات ثم تكلم عن شعراء المجون والموسوسين وتحدث عن جماعة من الشواعر من النساء الجوارى وغيرهن . وعن شعراء البديع وعلى رأسهم بشار ومسلم بن الوليد وأبى تمام كما ذكر جماعة من الشعراء المطبوعين (٤) .

---

(١) فحولة الشعراء الأصمعى (٢) طبقات الشعراء ٤٩، ٥٤، ١٨٤
(٣) نفسه : ٢٨
(٤) طبقات الشعراء ابن المعتز : ١٠٨

ومحاولة وضع الشعراء فى طبقات وتقسيمهم إلى طوائف بحسب تفاوتهم فى كثرة النتائج أوجودته أو القدرة على التصرف فى فنون الشعر تعد من أهم قضايا النقد العربى القديم .

٥ — قضيته القدماء والمحدثين :

وهذه القضية هى أساس كل قضايا النقد القديم وكان تطور الحياة وتحضر أساليبها واختلاف سبل المعيشة عن القديم كل هذا دعا الشعراء المحدثون إلى أن يحسوا ضرورة أن يساير فنهم ماجد فى هذه الحياة وأن يعبر عنها فلابد من التغير والتجديد ليكون الأدب واقعيا .
وقد وجد الشعراء الشعر فى الصورة التى ورثوه بها عن القدماء شعراً صحيحا قوى العبارة متين النظم صالحا للافصاح عن حاجات عصرهم فى الحدود التى رسمها القدماء .

فالتجديد فى ذلك أمر شاق وعسير ،فنظروا إلى نهج القصيده فوجدوه يتفق مع بداوه القدماء وفطرتهم واقتدارهم ولكن لاصـــلة له بحياتهم الجديدة فكان هذا داعيا إلى التجديد .

وكانت دعوة أبى نواس وغيره إلى الانصراف عن المطالع القديمة والبحث عن شيء جديد يلائم هذا العصر الجديد .

وإذا كان المحدثون قـــد سلموا للقدماء بالسبق فى المعانى وجزالة الألفاظ فإن مجال الصياغة والزخرف والتعميق أمامهم فكانت طبقة أصحاب البديع من الشعراء المحدثين كذلك حاول المحدثون التجديد فى أوزان الشعر وبحوره فاهتدى بشار إلى أوزان جديدة نظم فيها تظرفا وكذلك فعل أبو العتاهية .

وتأثر الأدب بالثقافات الأجنبية فنهل منها كثيرون وابتعد عنها العلماء وأهل اللغة الذين لم يقبلوا ثقافة غير الثقافة العربية الأصلية .

ووجد فريق ثالث أخذ حظه من الثقافتين العربيه والأجنبية .

واحتدمت الخصومة عنفية شديدة بين أنصار القديم وانصار الحديث ووقف انصار الاتجاه المعتدل الذى أخذ من الثقافتين يحاول التوسط بينهما

وإذا كان الاصمعى وابن سلام قد تعصبا للقدماء واعتبرا العنصر الزمنى هو الأساس فى تقويم الشعراء وتحديد مكانتهم .

فإن ابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ التفت إلى النص الأدبى ولم ينظر إلى القديم لقدمه أو يستقبح الحديث لأنه رأى قائله وإنما كان مقياسه وأساس حكمه هو الجودة الفنيـة للنص الأدبى وهو بذلك أراد أن يخلص النقد من التعصب للقديم .

وفى القرن الرابع خف اتجاه تقسيم الشعراء إلى طبقات واستبدل النقاد به النظر فى طبيعة الشعر وقضاياه الفنيه من حيث الفاظه وبنائه ومعانيه وصوره وتجديده وتقليده كما عنوا بالبحث عن أخطاء الشعراء وسرقاتهم إلى غير ذلك من الاتجاهات وغالبا ما يكون ذلك من خلال الموازنة بين شاعرين أو بين مذهبين .

والاتجاه العام لدى نقاد هـذا القرن هو الانتصار للمحدثين والدفاع عنهم أمام التقليديين . ولهذا وقف النقاد طويلا فى هـذا القرن أمام بحث السرقات وفصلوا القول فيه تفصيلا لم يسبقوا به .

ونجد أن النقد من الحقائق العلمية التى توصل إليها علماء اللغة والنحو والبيان أسساً موضوعيـة لقياس الأدب بها فاتسعت دائرة الموضوعيـة فى النقد بعد أن كانت جزئية وتضاءل النقد الذاتى بعد أن كان مسيطراً على النقد ، كما نجد أن النقد فى هذا العصر لم يهمل أبداً طبيعة الفن الأدبى وأهمية الجانب الوجدانى فيه فاتخذ من الذوق المدعم بوسائل المعرفه مقياساً من أهم مقاييسه

وقـــد فتحت الموضوعات التى أثارها هؤلاء النقاد العباسيون آفاقا جديدة سلكها من جاء بعدهم كقضية اللفظ والمعنى التى نبه إليها بشر بن المعتمر وأثارها الجاحظ وأخذ برأيه فيها أبو هلال العسكرى وتشيع لها ابن الأثير وهكذا بين مؤيد ومعارض للقضية يثرى النقد الأدبى .

وكذلك انتفعت كل مدارس النقد والبلاغة بما أورده الجاحظ من كلام عن الفصاحة والبلاغة .

وتأثر النقاد المتأخرون بكل ما أثاره نقاد القرن الثانى والثالث والرابع الهجرى عن قضايا وموضوعات وانتفع المتأخرون بتلك الآراء الخاصة فى خدمة الأدب ونقده .

ومنذ القرن الرابع بدأ الجمود يوسم الأدب ونقده فلم يعد يظهر شاعر له أسلوب ينفرد به عن معاصريه أو سابقيه ولم يعد ينشأ مذهب جديد . وأخذ الشعراء يعيدون فى المعانى التى سبقهم إليها شعراء القرن الثالث وما سبقـــه من قرون . ولاحظ النقاد ذلك فكتبوا أبحاثا طويلة فى سرقاتهم . ومع ذلك فقد كان شاعر القرن الرابع يحاول التجديد فهو يأخذ المعنى القديم ويعرضه بطريقة جديدة .

ومن هنا كان لهذا الشاعر أسلوبه الذى يستحق الدراسة والموازنة بينه وبين من سبقوه فهو صاحب منهج جديد يقوم على أداء المعانى القديمة بصورة جديدة ، كما يقوم على التصنع للأفكار الفلسفية والثقافية وصيغها المختلفة .

ومعنى ذلك أن شاعر القرن الرابع لم يكن يكتفى بتقليد السابقين بل كان يبذل جهداً عنيفا ليأتى بشىء غير مألوف وبذلك اتسع المجال أمام النقاد ليوازنوا بين أساليبه والأساليب القديمة . وقد تبين لهم من خلال دراساتهم للشعر فى القرن الثالث أن الشعراء كانوا يتبعون مذهبين الأول

مذهب الطبع والثانى مذهب الصنعة أو بتعبير أدق مذهب الصنعة ومذهب التصنيع لأن الشعر لا يعرف الطبع الخالص (إنما يكون فية صنعة ثم يشتد الميل إلى التأنق والتجميل من الناحيتين اللفظية والمعنوية فيكون التصنيع .

ضعف النقد بعد القرن الرابع(١) :

ثم قلت المعانى الحديثة حتى كادت أن تنتهى وأصبح الشعراء لا يملكون سوى التكرار الثقيل لمعانى القدماء وكلما تقدم الزمن زاد التكرار . وكذلك أصبح حال النقد والنقاد إعادة وتكراراً لملاحظات وآراء السابقين .

وهذه الظاهرة تبدو فى المؤلفات النقدية منذ القرن الخامس وأهمها كتاب (العمدة فى صناعة الشعر ونقده) وهو من أهم الكتب التى ألفت فى فى هذا القرن يلخص فيه ابن شيق آراء النقاد وملاحظاتهم فى عصور سابقة كما يلخص فنون البديع وما قيل فى الأوزان والقوافى وموضوعات الشعر ومعانيه .

وقد اشتمل الكتاب على أبواب كثيرة وهذه الكثرة تدل على أنه لم يتعمق دراسته صناعة الشعر ونقده وإنما هى نظرات جزئية يغلب عليها الجمع لما دار فى الكتب النقدية السابقة .

ومن خير أفكاره وأصدقها فكرته التى انتهى إليها عن اللفظ والمعنى فقد رأى أنهما متلازمان لا يمكن فصلهما ولا يستحسن النص إلا بجودتهما معا قال (اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان

---

(١) النقد سلسلة أدباء دار المعارف ص٩٦

نقصا للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح، وكذلك أن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ كالذى يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح .. فإن اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه. وإن كان حسن الطلاوة فى السمع كما أن الميت لم ينقص من شخصه شىء فى رأى العين إلا أنه لا ينقطع به ولا يفيد فائدة ، وكذلك أن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأننا لا نجد روحا فى غير جسم البتة)(١) .

ويعقد فصلا للطبع والصنعة يبدى فيه رأيه حيث يلاحظ أن الصنعة أو البديع هى كل الفرق بين القديم فى الشعر والحديث المولد منه فالعرب (لا تنظر فى أعطاف شعرها بأن تجانس أو تطابق أو تقابل ، فتترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ولكن نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه وإتقان بنية الشعر وإحكام قواعد القوافى وتلاحم الكلام بعضه ببعض)(٢) . وهو يرى أن كلا من البحترى وأبى تمام من مذهب واحد هو مذهب الصنعة وكل ما بينهما من خلاف أن البحترى أكثر طبعاً من أبى تمام أما أبو تمام فأكثر منه بديعا .

وهذا الرأى سطحى غير متعمق لمذهب الشاعرين .

وربما كان أطرف موضوعاته باب موضوعات الشعر فقد أفاض فى معانى كل موضوع وعرض خير أمثلته واستعان بآراء السابقين فى كل ما درس وذكر فى كتابه ، وأهم ما يميز كتابه هو ظاهرة الجمع والاختيار من آراء السابقين .

---

(١) العمدة باب اللفظ والمعنى ص

(٢) العمدة الطبع والصنعة .

وأهم كتب النقد فى القرن السادس وأوائل السابع الهجرى هو كتاب (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر) من تأليف ضياء الدين ابن الأثير ت ٦٣٧ هـ

وربما كان هذا الكتاب آخر الكتب النقدية التى يمكن أن نحصل منها فائدة .

وقد بدأه مؤلفه بتعريف علم البيان وتوضيح موضوعه وما يلزم صناعة الأدب من آلات وأدوات ونراه يردها إلى ثمانية أنواع هى العلم بالنحو ومعرفة اللغة مألوفها ووحشيها ومعرفة أمثال العرب وأيامهم والاطلاع على كتب النقد وأصحاب البلاغة ومعرفة الأحكام السلطانية وحفظ القرآن الكريم والتدريب على استخدامه فى مدارج الكلام وحفظ الحديث والتمرن على استعماله فى ثنايا العبارات وعلم العروض والقوافى ، ويفيض فى كل هذه الأدوات حتى إذا انتهى منها تحدث عن المعانى واحتمالات النصوص لها مفيداً مما كتبه الفقهاء فى علم الأصول عن التأويل والترجيح بين المعانى من حيث المنطوق والمفهوم وينتقل من ذلك إلى جوامع الكلم مما يجرى مجرى المثل والحكمة التى هى ضالة المؤمن ثم يتحدث فى الحقيقة والمجاز والفصاحة والبلاغة ، ورأيه يوافق رأى البلاغيين فى أن الفصاحة تكون فى اللفظ أما البلاغة فتشمل الألفاظ والمعانى .

وهو يتحدث أيضاً عن أركان الكتابة وطريقة تعلمها . وهذه الفصول عنده هى فصول علم البيان .

وبعد أن ينتهى من الحديث عن علم البيان يبنى بقية كتابه على مقالتين الأولى فى الصناعة اللفظية والثانية فى الصناعة المعنوية . ويضمن المقالة الأولى مجموعة من الفصول يتناول فيها المحسنات اللفظية مثل السجع والجناس ، أما المقالة الثانية فجعلها للمحسنات المعنوية وما يتصل بها من مثل الإيجاز والإطناب والأحاجى والألغاز .

وربما كان أجمل فصوله فى المقالة الأولى ما كتبه عن جمال الألفاظ فقد فصل الحديث فى صفات اللفظة المفردة متوسعا فى تصوير فصاحتها ووحشيتها وغرابتها وابتذالها ومطنبا فى بيان جزالتها ورقتها، ومن قوله فى ذلك (أعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين وأخلاق ولطافة مزاج، ولهذا ترى ألفاظ أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد، وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان، عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى) ويضرب لكل من النوعين أمثلة من القرآن والشعر.

أما الألفاظ المركبة فقد فتح فى عيوبها فصلا سماه المعاظلة اللفظية وعرض فيه لبعض أبيات المتنبى المعقدة، والتى تثقل ألفاظها وقال عقب أحد أبياته (وهذا وأمثاله إنما يعرض لقائله من نوبة الصرع التى تنوب فى بعض الأيام). وفى فصل ثان تحدث عن المنافرة بين الألفاظ وذكر بيت المتنبي المتداول بين البلاغيين:

فلا يبرم الأمر الذى هو حالل
ولا يحلل الأمر الذى هو يبرم

وأشار إلى ما فى كلمة حالل من تنافر، ولم يلبث أن قال (وبلغنى عن أبى العلاء بن سليمان المعرى أنه كان يتعصب لأبى الطيب حتى إنه كان يسميه الشاعر ويسمى غيره من الشعراء باسمه، وكان يقول: ليس فى شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو فى معناها فيجىء حسنا مثلها، فياليت شعرى أما وقف على هذا البيت المشار إليه، ولكن الهوى كما يقال أعمى).

وإذا كان يهجم على المتنبى وأبى العلاء بمثل هذا الذم فإن

غيرهما فى كتابه أشد وأعنف . وقد أصلى اللغويين من هذا الهجوم ناراً حاميه، فقال عنهم فى غير موضع إنهم لا يصلحون للحكم فى البيان والبلاغة وإن أذواقهم فاسدة، ودائماً ينوه بأن معرفه الفصاحة والبلاغه شيء ومعرفه النحو والإعراب شيء آخر .

وخير فصول الكتاب ذلك الذى ختم به الكتاب وقد خصه ببحث فى السرقات، وفى مستهله يقول (ذهبت طائفة من العلماء إلى أنه ليس لقائل أن يقول إن لأحد من المتأخرين معنى مبتدعا فإن قول الشعر قديم منذ نطق بالعربيه ، وإنه لم يبعد معنى من المعانى إلا وقد طرق مراراً) ويرد ابن الأثير على هذا الزعم ويقول إن باب الابتداع مفتوح الى يوم القيامة ، ولكن المسأله ليست مسألة أن الابتداع مفتوح ، وانما المسألة أن الشعراء حجروا فعلا على خواطرهم وعقولهم وتقيدوا بما قاله السابقون لا فى المعانى فحسب ، بل حتى فى التشبيهات والاستعارات والمحسنات اللفظية ، ويمضى ابن الأثير فيذكر أن علماء البيان تكلموا فى السرقات فأكثروا .

ويقسم السرقات إلى ثلاثة أقسام: نسخا وسلخا ومسخا ثم يفرع من هذه الأقسام فروعا تبلغ ستة عشر ، وليس فيها جديد ومع ذلك فهذا البحث من خير بحوث السرقات ، لأنه لم يقف عند المعانى المتداولة بين الشعراء وحدها ، بل حاول أن يأتى بقصيدتين فى موضوع مشترك ويوازن بينهما فى المعانى ويوضح ما اتفق فيه الشاعران . وما اختلفا وأيهما يفضل صاحبه ، وأول ما أورد من ذلك قصيدة أبى تمام فى رثاء ابنى عبد الله بن طاهر وقصيدة المتنبى فى مرثيه طفل لسيف الدولة ، وحكم للمتنبى بالتفوق فى قصيدته وقال إن أبا تمام أشعر من أبى الطيب ، ولكن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع وهذه نظرة جيدة .

كما وقف عند قصيدتين للبحترى والمتنبى فى وصف الأسد ووازن

بين معانيهما ، ثم حكم للمتنبى بالغوص على المعانى وللبحترى بالصياغة وطلاوة السبك . وابن الأثير بالنسبة إلى عصره له فضل عظيم . ولكنه بالقياس إلى عصور النقد الخصبة لا يعد شيئاً مذكوراً .

وبعد فنلاحظ مما سبق أن النقد العربى قـــد نشأ منذ العصر الجاهلى معتمداً على الذوق والفطرة وملائماً لشكل وطبيعة الحياة التى نشأ فيها ثم أنه تطور بتطور الحياة وتعدد الثقافات فاعتمد على الموضوعية والعلم إلى جانب مقياس الذوق والذاتية ونهض ونمت آراؤه وقضاياه حتى بلغت شأواً عظيماً فى القرن الرابع الهجرى .

ثم بدأ الجمود فكان التكرار والاستعادة لآراء السابقين ولم يحدث تطور كبير فى الآراء النقدية بعد هذا القرن وإنما هى إضافات جزئية وتجديدات نادرة ثم شروح وتعليقات ثم اختصار للشروح وهكذا حتى تجمد النقد وأصبح نصيب العلوم الأخرى هو النصيب الأكبر فيه فتحول إلى مقاييس واصطلاحات .

الفصل الرابع

أهم مؤلفات النقد العربى القديم

فى القرن الثالث الهجرى :

كتاب فحولة الشعراء للأصمعى (ت ٢١٦ هـ) .

يعد هذا الكتاب الصغير الحجم من أقدم المصادر النقدية التى ظهرت فى عصر التأليف ، وهو يقوم على الحوار بين راوية أبى حاتم السجستانى (ت ٢٥٥ هـ) .

وبين الأصمعى . وفيه نرى أباحاتم يسأل الأصمعى عن الشعراء الجاهليين والإسلاميين ومدى ما لهم من منزلة فى الشعر والكتاب من عنوانه ينبىء عن موضوعه ـ فالفحولة تعنى القوة الغالبة التى تعين على التفوق كما يتفوق الجمل أو الفرس على أقرانه فيكون فحلا . والشاعر الفحل هو الذى يتفوق على نظرائه من الشعراء .

ومن أمثلة هذا الحوار الذى يوضح الأسس التى أقيمت عليها صفة الفحولة .

يقول أبو حاتم : سألت الأصمعى عن عمرو بن كلثوم أفحل هو ؟ فقال: ليس بفحل ، وقلت : فعروة بن الورد ؟ قال : لو كان قال خمس قصائد مثل قصيدته العينية كان فحلا . قلت : فحميد بن ثور ؟ قال ليس بفحل قلت : فحاتم الطائى ؟ قال : حاتم انما يعد فيمن يكرم ولم يقل أنه فحل فى شعره . . قلت : فكعب بن سعد الغنوى ؟ قال : ليس من الفحول إلا فى المرثية فإنه

ليس فى الدنيا مثلها وسألته عن خفاف بن ندبة ، والزبرقان بن بدر فقال هؤلاء أشعر الفرسان قلت : فأوس بن مغراء الهجيمى ؟ قال : لو كان قال عشرين قصيدة للحق بالفحول ولكنه قطع به(١) .

ومن النص يتضح أن الفحولة تقتضى أن تتغلب صفة الشعر على ماعداها من صفات الشاعر ، فالشاعرية لم تتغلب على حاتم الطائى كما تغلبت صفة الكرم ، وكذلك الشعراء الفرسان غلبت عليهم صفة الفروسية فلم يكونوا فحولا . وثانى أسس الفحولة كثرة عدد القصائد الجيدة ولذلك لم يكن الحويدرة فحلا وان عرفت له قصيدته العينية المشهورة ، ومثله كعب بن سعد الغنوى .

هذا ومن الآراء النقدية التى أثرت عن الأصمعى أن الشعر يقوى فى موضوعات دون موضوعات أخرى ، وأن الشاعرية تبلغ أوجها بالنسبة للشاعر الواحد فى مجال دون آخر . وحسان بن ثابت رضى الله عنه مثل على ذلك .

يقول الأصمعى طريق الشعر إذا أدخلته فى باب الخير لان ، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان فحلا فى الجاهلية والإسلام فلما دخل شعره فى باب الخير من مراثى النبى ﷺ وحمزه وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم لان شعره وطريق الشعر هو طريق الفحول مثل امرىء القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار فإذا أدخلته فى باب الخير لان(٢) .

(١) فحول الشعراء : ٢٧

(٢) الموشح : ٨٥

٢ — طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى (ت حوالى ٢٣٢م) :

والكتاب ذو منهج تاريخى ترجم فيه مؤلفه لفحول الشعراء فى الجاهلية والإسلام . ووضعهم فى طبقات فشعراء الجاهلية عشر طبقات فى كل طبقة أربعة شعراء ثم أتبع ذلك بثلاث طبقات أخرى طبقة أصحاب المراثى وطبقة شعراء القرى العربية وطبقة شعراء اليهود . ثم انتقل الى شعراء الإسلام وجعلهم أيضا عشر طبقات .

وقد صدر فى تقسيمه هذا عن مبادىء عامة اتخذها أساساً للحكم عليهم هى كثرة شعر الشاعر وتعدد أغراضه وجودة شعره .

وتناول فى ثنايا حديثه عن الشعراء بعض الظواهر الأدبية وعللها ، كأثر البيئة فى لين اللسان أو غلظه وفى رقة الشعر أو خشونته .

قال عن عدى بن زيد وهو يترجم له (كان يسكن الحيرة ويراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه)(١) .

وقال (وأشعار قريش فيها أشعار فيها لين وسبب ذلك فيما أرى تحضر قريش لأنها كانت تسكن إحدى قرى الجزيرة)(٢) .

ومن مثل قلة الإنتاج الأدبى فى بعض البيئات وكثرته فى البعض الآخر قال (وبالطائف شعر وليس بالكثير وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التى تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج . والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة(٣) . وذلك الذى قلل شعر عمان)(٤) .

---

(١) طبقات الشعراء : ١١٧
(٢) طبقات الشعراء : ٢٠٤
(٣) ثائرة : عداوة وحقد
(٤) طبقات الشعراء : ٢١٧

وقد تنبه ابن سلام الى فكرة المعنى الذى تدوول حتى استفاض وصار كالمشترك فهو يقول : إن امرأ القيس سبق العرب الى أشياء ابتدعها استقنها للعرب وأتبعته فيها الشعراء ، منها استيقاف صحبه ، والبكاء على الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ وتشبيه النساء بالظباء والبيض والخيل بالعقبان والعصى(١) .

ويظهر جهد ابن سلام فى حديثه عن الوضع والانتحال فى الشعر واسباب ذلك منبها الى ضرورة التوقف فيما يرويه للرواة قبل أن يسجل عنهم ويدون . وهو يدعو الى التزام السند الصحيح المتصل بالرواة الموثوق بهم مع البعد عن القصاص والمتكسبين بالرواية .

ويؤخذ على ابن سلام عدم عنايته بتحليل الشعر وتذوقه ، وعدم الإشارة الى مواطن الجمال فى النماذج الجيدة التى ساقها للاستشهاد .

كما يؤخذ عليه انه ذكر بشامة بن الغدير فى طبقات الإسلاميين وعدم ذكره لعمر بن أبى ربيعة على الرغم من مكانته فى الشعر الإسلامى .

والتاريخ فى الكتاب يظهر أكثر من النقد .

ومع ذلك فأهميته هذا الكتاب ترجع بالدرجة الأولى الى أنه من أوائل الكتب التى عنيت بالنقد العربى القديم وأشار إلى قضاياه التى نمت فيما بعد وكثر الحديث عنها مثل قضية الطبقات والموازنه والسرقات كما أن الكتاب يجمع آراء العلماء فى الشعر ونقده وفى نصه على أن الشعر صنعه كباقى الصناعات له قواعد واصول .

---

(١) طبقات الشعراء : ١٦

٣ – البيان والتبيين والحيوان للجاحظ ت ٢٥٥ هـ

وعلى الرغم من أهمية هذين الكتابين وما وجد فيهما من نظرات وأشارات تهم النقد والنقاد فقد أهملهما أكثر النقاد المحدثين ومن الاشارات الهامة التي تخدم النقد :

١ – ما يصح أن نسميه مقياس الأدب الجيد وشروطه قال (أخبرني محمد بن عباد قال : سمعت أبا دؤاد بن جرير يقول : تخليص المعاني رفق والاستعانة بالغريب عجز والتشادق من غير أهل البادية بغض ورأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام وحليها الإعراب وبهاؤها تخير اللفظ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه(١) .

فهو يرى أن الأدب الجيد هو ما اجتمع فيه الطبع وعدم التكلفة والرواية والذكاء والعلم والممارسة والدربة ويعلق الجاحظ على كلام أبي دؤاد بقوله فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا . وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزها عن الاختلال مصونا من التكلف صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة .

وهو يعلم أن طبائع الناس متباينة فما يميل اليه فلان قد لا يلائم غيره وهكذا يقول (وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليست له طبيعة في الكلام ، ويكون له طبيعة في التجارة وليست له طبيعة في الفلاحه . . .

ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع ولا يكون له طبع في قرض بيت من الشعر (٣) .

---

(١) البيان والتبيين ٥٩/١
(٢) نفسه ٩٧/١
(٣) نفسه ٢١٤/١

ويوصى من يحس فى نفسه طبعا فى الأدب بتنمية موهبته ورعاية موهبته فيقول : (وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة ، وأنهما يناسبانك كل المناسبة (١).

ولا يتمشى مع الطبع أن يقلد البدوى شعر الحضرى أو العكس ، فإذا ما تظرف بشار وأبو نواس أو تحديا الرجاز بالنظم على طريقة البدو وجدنا الجاحظ يقاومهما مقاومة شديدة ويروى قول رسول الله ﷺ « من بدأ جفا » وينقل نصوصا عن النقاد من أمثال بشر بن المعتمر ليحث الأدباء على تجاوز هذا الجانب . ومن قوله فى ذلك :

(كما لا ينبغى أن يكون اللفظ ساقطا سوقيا ، فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبا وحشيا إلا ان يكون المتكلم اعرابيا ، فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى)(٢) .

ويشنع الجاحظ على أصحاب الألفاظ الوحشية ويحث على رقة الكلام يقول : (قال أحد الرباتين والبلغاء أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعارة البليغ مخرجا سهلا ومنحه المتكلم قولا متعشقا صار فى قلبك أحلى ولصدرك أملأ ، والمعانى إذا كسيت الألفاظ الكريمة وألبست الألفاظ الرفيعة تحولت فى العيون عن مقادير صورها وأربت على حقائق أقدارها بمقدار ما زينت وعلى حسب ما زخرفت فقد صارت الألفاظ فى معنى المعارض وصارت المعانى فى معنى الجوارى والقلب ضعيف وسلطان الهوى قوى(٣)) .

---

(١) البيان والتبيين ج ٢٠١
(٢) نفسه ١٥٧/١
(٣) نفسه ٢٢٣/١

ويعلق الجاحظ على هذا النص بقوله (فالقصدان تجتنب السوقي والوحشي ولا تجعل همك فى تهذيب الألفاظ ، وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى وفى الاقتصار بلاغ وفى التوسط مجانبة للوعورة ، والخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه وقد قال الشاعر :

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا(١)

والجاحظ يوصى الأدباء بتصفيه أساليبهم واختيار الفاظهم ويرشدهم إلى مايستحسب وما يستهجن من الأساليب .

وقد وجه الجاحظ عنايه كبيرة إلى اختيار اللفظ فقال : إن البلاغة فى الألفاظ لا فى المعانى(٢).

— واهتمامه بالألفاظ جعله يتحدث عن تأثيرها فى جودة الأدب قال (ومتى شاكل اللفظ معناه وأعرب عن فحواه وكان لحاله وفقا وسلم من فساد التكلف كان قمينا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع .

ومتى كان اللفظ أيضا كريما فى نفسه متميزا فى جنسه وكان سليما من الفضول بريئا من التعقيد حبب إلى النفوس واتصل بالأذهان وهشت اليه الاسماع وخف على السن الرواة وشاع فى الآفاق ذكره(٣) وهو فى النص السابق يضع مقاييس لغة الأدب.

— وينبه إلى العاطفة وأثرها فى الأدب فى هذا النص ، قيل لأعرابى ما بال المراثى أجود أشعاركم ؟ قال : لأنا نقول وأكبادنا تحترق ويقول معاوية لصحار العبدى : ما هذا الكلام الذى يظهر منك ؟ قال شيء تجيش به صدورنا فنقذفه على ألسنتنا .

---

(١) البيان والتبيين ٢٥٤/١
(٢) الحيوان ٤٠/٣
(٣) البيان والتبيين ٦٧/٢

- والجاحظ يدعو إلى أن يكون الأدب موضوعيا قائما على أسس تبعده عن التحيز والتعصب فإذا كان الحب يعمى عن المساوىء فإن البغض يعمى عن الحقائق ، وليس يعرف حقائق مقادير المعانى ومحصول حدود لطائف الأمور إلا عالم حكيم أو معتدل الأخلاط (معتدل المزاج)(١) .

وقد طبق هـــذه الدعوة على نفسه فكان محايداً عادلا بانتصاره للمولدين (٢).

- والجاحظ يرى أن للنقد رجاله المتخصصين فيه وهم غير رجال اللغة والنحو وثقافتهم غير ثقافتهم قال : (طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يعرف الإغرابه فرجعت إلى الأخفش والفيته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة . فرأيته لاينقد الا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب فلم أظفر بما أردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد ابن عبد الملك الزيات(٣).

ونظرات الجاحظ فى النقد والنقاد نظرات قيمة يجب عدم اغفالها ودراستها دراسة واعية ففيها الكثير من الإشارات إلى الآراء والقضايا التى بحث وكثر الحديث عنها بعد الجاحظ وفيها الأسس الموضوعية للنقد العربى القديم .

---

(١) نفسه ٢/٣٢١
(٢) البيان والتبيين ١/١٠٤
(٣) الحيوان ٣/١٣٠
(٤) العمدة ١٤٠

الشعر والشعراء لابن قتيبة ت ٢٧٦ ﻫ :

والكتاب كما يتضح من اسمه يختص بأمرين أولهما : الشعر ، وثانيهما الشعراء .

وأهمية الكتاب ترجع إلى ما تضمنته المقدمة من آراء نقدية :

– ومن أهم ما ورد فيها ظاهرة الخصومة بين القدماء والمحدثين والقدماء هم أنصار الشعر الجاهلي والأموي إلى نهاية القرن الأول الهجري .

أما المحدثون فهم من أتوا بعدهم وأنصارهم بشار بن برد ومروان بن أبي حفصة ومطيع بن إياس وابن هرمة والعتابي ومنصور النمري وأبو نواس ومسلم بن الوليد وابن المعتز وابن الرومي والبحتري والمتنبي والمعري .

وكان لاختلاف النقاد في الرأي وعدم اتفاقهم على تفضيل أحد الفريقين أثر في وجود خصومة بين أنصار القديم وأنصار الحديث .

وكان الرأي الغالب هو مناصرة الشعراء القدماء . وقد خالف ابن قتيبة هذا الاتجاه بنظره إلى النص الجيد بصرف النظر عن قائله ؟ وفي أي عصر قيل في مقدمة الشعر والشعراء ،موضحاً المنهج الذي اتبعه(١) (ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر ولا نظرت له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ووفرت عليه حظه) .

ويوضح أنه خالف علماء عصره في رأيه فيقول (فإني رأيت من علمائنا

---

(١) مقدمة الشعر والشعراء ٧ ، ٨

من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه ورأى قائله .

— ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده) .

ويقرر منطق التطور بقوله (جعل كل قديم منهم محدثاً فى عصره فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون محدثين ثم صار هؤلاء قدماء عندما بعد العهد عنهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا) .

— ولكن ابن قتيبة لا يساير دعوته هذه إلى النهاية وإنما نراه يعود إلى الوراء فيدعو الشعراء المتأخرين أن يسيروا على نهج القدماء فيقول : (ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فيقف عن منزل عامر ويبكى عند مشيد البنيان لأن المتقدمين رحلوا على الناقه والبعير أو يرد على المياه العذبة الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأوجن الطوامى أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والورد والآس لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار)(١) .

وهو يتحدث عن أقسام القصيدة العربية فى الجاهليه ويتخذها مقياساً لجودة شعر الشاعر فيقول (فالشاعر الجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هـــذه الأقسام ولم يطل ويمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد)(٢) .

— وبينما نرى ابن قتيبة موفقا فى تعريف الشاعر المطبوع بأن من سمح بالشعر واقتدر على القوافى وأدرك فى صدر بيته عجزه وفى فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة إذا بنا نراه يخلط بين الشعر

---

(١) مقدمة الشعر والشعراء (٢) الشعر والشعراء : ١٤

المطبوع والشعر المرتجل ، فهو يصف الشاعر المطبوع بأنه الذى إذا امتحن لم يتلعثم ، ويضرب لذلك بعض الأمثلة من شعر شعراء فاضت قريحتهم بالشعر عندما طلب منهم أن يقولوه(١) .

— وقد غلبت الروح العلمية على ابن قتيبة أكثر من غلبة الذوق الأدبى فقسم الشعر إلى أربعة أضرب على حسب الجودة والرداءة فى ألفاظه ومعانيه (ومع أنه يعنى باللفظ النظم كله أى الصياغة والتعبير فإنه لم يلتفت إلى عنصر مهم فى الوجدان والانفعال أى العاطفية وما يتبعها من خيال ولهذا يهمل جانب التصوير)(٢) .

ويستدل كثير من النقاد على إهماله جانب التصوير باستشهاده ، بهذه الأبيات :

ولمـــا قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو مـاسح
وشدت على حدب المطايا رحالنا
ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

فهو يمثل به ما حسن لفظه وحلا
فإن فتشت لم تجد هناك طائلا

على أنه لا يهمل التصوير كلية بل يجعل الإصابة فى التشبيه أحد أسباب أربعة يختار الشعر لأجلها ويحفظ(٣) .

---

(١) الشعر والشعراء المقدمة
(٢) القاضى الجرجانى والنقد الأدبى ١٥٥ ط الهيئة المصرية للكتاب .
(٣) الشعر والشعراء ٢٠١ .

— ويتحدث عن قضية من أهم قضايا النقد القديم وهى قضية السرقات فيرى أنه إذا اتفق بيتان لشاعرين فى عصر واحد ولم نعرف السابق أو اللاحق منهما لم يكن لنا أن نحكم بأن أحدهما أخذ من صاحبه .

ويقول : كان الناس يستجيدون قول الأعشى :

وكأس شربت على لذة
وأخرى تداويت منها بها

إلى أن قال أبو نواس :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء
وداوانى بالتى كانت هى الداء

فزاد فيه معنى اجتمع له بالحسن فى صدره وفى عجزه ، فللأعشى فضل السبق عليه ولأبى نواس فضل الزيادة عليه(١) .

— وقد تكلم ابن قتيبة عن الإلهام الشعرى كما تحدث عن دواعيه فللشعر أوقات يبعد فيها قريبه ويستصعب ريضه ، ولا نعرف لذلك علة إلا من عارض يعرض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم ، وكان الفرزدق يقول : أناأشعر تميم وربما أتت على ساعة ونزع ضرسى أهون على من قول بيت .

والشعر أوقات يسرع فيها أتيه ويسمح فيه أبيه منها أول الليل قبل تغشى الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغذاء ومنها شرب الدواء ومنها الخلوة فى المجلس والسير ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر الواحد حتى قالوا فى شعر النابغه الجعدى خمار بواف ومطرف بالآف(٢) .

---

(١) الشعر والشعراء : ١٣ (٢) نفسه ١٨

— وهو يتنبه إلى أثر البيئة فى شعر الشاعر ، وقد سبق ابن سلام إلى ذلك. ويذكر ذلك فى ترجمته لعدى بن زيد(١) كابن سلام ويمكن أن نقول أن كتابه وإن أثار بعض آراء وقضايا خاصة بالنقد إلا أن ناحية التاريخ للأدب هى الغالبة عليه .

ويؤخذ على ابن قتيبة عدم شرحه للنصـــوص أو تحليلها تحليلا موضوعيا وأنه اكتفى بذكر النماذج والانتقال منها سريعا إلى غيرها .

الـكامل لأبى العباس محمــد بن يزيد البصرى المعروف بالمبرد ت سنة ٢٨٥ هـ :

والـكتاب يفيض بالنصوص الأدبية المأثورة التى وافقت الذوق العربى فى ذلك العصر . ولأن مؤلفه أديب لغوى نحوى فهو يعالج هذه النصوص على طريقته العربية الخالصة فهو يشرحها ويوضحها ثم يشير إلى ما فيها من إيجاز أو إطناب . ويأتى بالأمثلة الـكثيرة على ألفاظ العرب القريبة المفهمة الحسنة الوصف الجميلة الرصف وعلى ما يفضل التخلص من التـكلف وسلامته من التزيد ، ثم يستحسن لفظه ويستغرب معناه ويحمد اختصاره ، أو ما يستحسن إنشاده من الشعر لصحة معناه وجزالة لفظه وكثرة تردد ضربه من المعانى بين الناس(٢) .

والمبرد لا يتحدث عن الجيد الذى يعجبه فقـط ، بل ينبه أيضا إلى ما لا يعجبه ، يقول : (ومن أقبح الضرورة وأهجن الألفاظ وأبعد المعانى قول الفرزدق يمدح إبراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه(٣)

(١) الشعر والشعراء ٦٣
(٢) الـكامل ١ ، ١٧ ، ١٨
(٣) نفسه ١ : ١٨

ويعيب الكلام إذا لم يجر على نظم ولم يقع إلى جانب الكلمة ما يشاكلها إذ أول ما يحتاج إليه القول أن ينظم على نسق وأن يوضع على رسم المشاكلة ويستدل على ذلك بقول عمر بن لجأ لابن عم له : أنا أشعر منك لأنى أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه (١) .

والبلاغة عنده هى التوافق بين اللفظ والمعنى فلا خير فى الأديب إذا كثر أدبه ونقصت قريحته أى إذا كثر كلامه وقل فكره .

وللمبرد نظرات صائبة فى نقد الأدب من ذلك :

— النقد الجلى : أى نقد النص الأدبى كله وليس الوقوف عند جزء أو أجزاء منه إذ فى ذلك ظلم للأدب وإجحاف بالأديب ، ذلك أن النقد لا ينبغى أن يقتصر على السقطات التى يقع فيها الشاعر المكثر كما يقع سائر الناس ممن يشتغلون بالصناعة الأدبية أو بغيرها من سائر الصناعات، فإهمال أدب الأديب فى جملته تقصير فى جانب الحق، وهو عيب من ناحيتين ناحية فنية وهى تلزمك بالنظر فى جملة ما يقول الأديب وما أنتجه ، وناحية خلقية وهى تمس الإنصاف نفسه فيكون موقف الناقد من المنقود موقف التحدى له والنقمة عليه(٣) .

والمبرد لا يرضى لنفسه فى نقده أن يقف هذا الموقف كما لا يرضاه لغيره من النقاد فهو يقول (وقد يضطر الشاعر المفلق والخطيب المصقع والكاتب البليغ فيقع فى كلام أحدهم المعنى المستغلق واللفظ المستكرة فإن انعطفت عليه جنبتا الكلام غطت عن عواره وسترنا من شينه وإن شاء

(١) نفسه ١ : ٣٣٥

(٢) نفسه ١ : ٤٦

(٣) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ابراهيم سلامة ٢٢١

قائل أن يقول ، بل الكلام القبيح فى الكلام الحسن أظهر ومجاورته له أشهر كان ذلك له ولكن يغتفر السيء للحسن والبعيد للقريب(١) .

— ويبدو الحياد فى النقد عند المبرد فلا تعصب للقدماء لا لشيء إلا لأنهم قدماء ولا تحامل على المحدثين لا لشيء إلا لأنهم محدثون بل يجب أن يسود العدل نزولا على دواعى الإنصاف متى تحققت الجودة وأمكن التوصل إلى الإبداع فى الخلق الفنى والإنتاج الأدبى يقول (وليس لقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب (لكن يعطى كل ما يستحق)(٢) .

— وهو يستجيد الشعر الملتزم بالتقاليد ويعيب ما خرج على العرف والمألوف ويروى نقد كثير لعمر بن أبى ربيعه والأحوص ونصيب(٣) .

ونرى أن المبرد يتابع الجاحظ وابن قتيبه فى أكثر آرائه من مثل رأيه فى تفضيل النص الجيد دون النظر إلى قائله وعصره واشاراته إلى السرقات الشعرية والمعانى المتداولة بين الشعراء ورأيه فى الشعر الجيد وهل يستحسن للفظه أو لمعناه ، والكتاب يدل على ارتباط علوم اللغة بالأدب ونقده .

---

(١) الكامل ١/١٧

(٢) نفسه ١/١٨

(٣) نفسه ٣٣٢ ، ٣٣٣

قواعد الشعر لأبى العباس ثعلب ت ٢٩١ هـ :

مؤلف هذا الكتاب من اعلام اللغة والنحو . وما لفت إليه نظرنا هو عنوانه الذى يدل على عنايته بأسس أو مقاييس جودة الشعر

وقد تحدث فى كتابه (الصغير) عن قواعد الشعر ونص على أنها أربعة أمر ونهى وخبر واستخبار ممثلا لذلك من أغراض الشعر المختلفة من مدح وهجاء ورثاء وتشبيب واعتذار وتشبيه وهو يتحدث من خلال ذلك عن بعض وجوه البلاغة والنقد فيذكر المبالغة والإفراط فى المعانى والكناية والاستعارة ، والانتقال من غرض إلى آخر فى القصيدة الواحدة والكتاب ليس له قيمة كبيرة فى المؤلفات النقـــدية فى القرن الثالث الهجرى على الرغم من عنوان الكبير الذى يوهم أنه يتعرض لأصول الشعر ونظرياته .

البديع لابن المعتز ت ٢٩٦ هـ :

ومؤلف هذا الكتاب شاعر أديب وناقد .

والكتاب يعد رد فعل لاتجـاه الشعراء المحدثين فى عصر ابن المعتز حين أخذوا يصرفون همهـم إلى التجديد فى صياغة الشعر لاعتقادهم أن الأقدمين استنفدوا المعانى ، وكان مظهر التجديد عندهم بارزاً فى الإكثار من صور البيان تشبيها واستعارة، ومن الإكثار من المحسنات طباقا ومقابلة وجناساً وعرف هذا بالبديع أى الجديد المخترع وظنوا أنهم بإكثارهم من هذه الألوان يتفوقون على القدماء وقد ألف ابن المعتز كتابه ليثبت لهؤلاء الشعراء أن الألوان التى ظنوها أمراً جديدا هى موجودة من قبلهم فى القرآن الكريم .

وفى الحديث النبوى وفى كلام الصحابة وفى أشعار القدماء ، وقد كان وجودها دون إكثار وإسراف ، وليس على النحو الذى اتجه إليه هؤلاء

المحدثون حين أكثروا فأساؤا وحادوا عن المنهج المعروف بعمود الشعر (١) فهدف ابن المعتز أن يثبت أن البديع كان موجودا قبل المحدثين وانه كان جيدا لأن الشاعر لم يكن يتكلفه بل كان يأتى عفو الخاطر ولخدمة النص

وابن المعتز كما كان من علماء البلاغة فهو كذلك من أئمة النقد وأعلامه فهو الذى حدد خصائص مذهب البديع ورده إلى التراث العربى القديم ، ووصل أبا تمام بسلسلة بشار ومسلم وأبى نواس وقد كان لهذا أعظم الأثر فى توجيه النقــــد وجهة تاريخية عظيمة ، عظمت معها العناية بالسرقات الأدبية فقد أخذ النقاد يهتمون بما أخذه اللاحق عن السابق ومازاده هذا على ذلك أو الخط فيه عنه (٢) .

— ولم يكن يكتفى بايراد شواهده وإنما كان يقف أمام بعضها ناقدا لها .

— وهو يفرق بين مثالية الأخلاق روحانيه الدين من ناحية وبين فنية الشعر وواقعية الأدب من ناحية (٣) .

بعث محمد بن القاسم الأنبارى برسالة إليه يقول فيها جرى فى مجلس الأمير ذكر الحسن بن هانىء والشعر الذى قاله فى المجون ، وكان حق شعر هـذا الخليع ألا يتلقاه الناس بألسنتهم ، ولا يدونوه فى كتبهم ولا يحمله متقدمهم عن متأخرهم ، فرد عليه ابن المعتز برسالة طويلة قال فيها بعد كلام كثير ، ولم يؤسس : *التشعر* على أن يكون المبرز فى ميدانه من أقتصر على الصدق ، ولم يقر بصبوة ولم يرخص فى هفوة ، ولو سلك بالشعر هذا المسلك لكان صاحب لوائه من المتقدمين أمية بن أبى الصلت الثقفى وعدى بن زيد إذ كانا أكثر تذكيرا ومواعظ فى أشعارهما من أمرىء القيس والنابغة .

---

(١) مقدمة البديع لابن المعتز ١

(٢) القاضى الجرجانى والنقد الأدبى ١٦١ د . عبده قلقيلة .

(٣) ن . م والصفحة .

فقد قال امرؤ القيس :

سموت إليها بعـــد ما نام أهلها

سمو حباب الماء حالا على حال

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلهـــا

عليـــه القتام سيء الظن والبـال

وهل يتناشد الناس أشعار امرىء القيس والأعشى والفرزدق وعمر ابن أبي ربيعة وبشار وأبي نواس على تعهرهم ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم إلا على ملأ من الناس وفي حلق المساجد ؟ وهل يروى ذلك إلا العلماء المشهود بصدقهم . الخ .

فهو هنا يشير إلى الفن للفن والمذهب الواقعي الذي عرف في النقـــد فيما بعد .

ونلاحظ أن عمل ابن المعتز في كتابه كان مزدوجا قصد به تحقيق أمرين :

١ — أصالة البلاغة العربية ولهذا حاول جهده أن يثبت أن ما سماه المحدثون بديعا لم يكن من عملهم ولا من نتاج خيالهم بل هو أمر قديم عرفه العرب في جاهليتهم وإسلامهم معرفة فنية عملية وإن لم يصلوا إلى مسماه الاصطلاحي .

٢ — الأمر الآخر نقدي كما ذكرنا من قبل .

ومقدمة كتابه تشير إلى قصده وهدفه .

---

(١) جمع الجواهر في الملـــح والنوادر لأبي اسحاق إبراهيم الحصري القيرواني ط الرحمانية ٣٣ .

وكان لعمل ابن المعتز أثر كبير فى تاريخ النقد الأدبى العربى فهو قد حدد خصائص مذهب البديع ، ومكن بهذا التحديد للخصومة بين القدماء والمحدثين إذ أصبحت خصائص المذهب واضحة ثم هو النقاد اللاحقين بشكل ملحوظ وقد وضح هذا التأثير فى مؤلفاتهم وطريقة تناولهم للنقد على نحو منظم دقيق .

عيار الشعر لابن طباطبا العلوى ت ٣٢٢ هـ وهو من أخصب الكتب النقدية وهو محاولة جيدة لوضع أسس يقوم بها الشعر فقد تناول فيه مسائل كثيرة بين جيدة ورديئة تأثر بها النقاد بعـــده ومن أبرز المسائل تعريفه للشعر وبيان قيمته بالنسبة للعرب .

— جاء فيه ذكر أدوات الشعر التى يجب على الشاعر اعدادها قبل مراسه وقد عد المؤلف من هذه الأدوات (التوسع فى علم اللغة والبراعة ، فى فهم الاعراب والرواية لفنون الآداب والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم[١] .

وذكر أدوات الشعر التى يجب على الشاعر اعدادها قبل مراسه وعد من هذه الأدوات (التوسع فى عـلم اللغة والبراعة فى فهم الاعراب والرواية لفنون الآداب والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم[٢] .

— وفى فصل عنوانه المثل الأخلاقية عند العرب وبناء المدح والهجاء

---

(١) عيار الشعر ٤ — ٥ .

(٢) عيار الشعر : ٤ ، ٥

عليها يقول ابن طباطبا (وأما ماوجدته فى أخلاقها وتمدحت به ومدحت به سواهما وذمت كل من كان على ضد حاله فيها نخلال مشهورة كثيرة منها فى الخلق الجمال والبساطة ومنها فى الخلق السخاء والشجاعة)(١) .

وهو يخالف قدامة فى ذلك

— ويدعو إلى التجويد وإلى التحرز من الأخطاء ومعالجة ما عساه يوجد منها فى العمل الفنى قبل إذاعته بقوله (فينبغى للشاعر فى عصرنا ألا يظهر شعره إلا بعد ثقته بجودته وحسنه وسلامته من العيوب التى نبه عليها وأمر بالتحرز منها ونهى عن استعمال نظائرها ولا يضع فى نفسه أن الشعر موضع اضطرار وأنه يسلك سبيل من كان قبله ويحتج بالأبيات التى عيبت على قائلها فلا يقتدى بالمسيء وإنما يقتدى بالمحسن)(٢) .

— ويتحدث عن أصول البلاغة فيقول (ويحضر الأديب لبه عند كل مخاطبة ووصف فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات ، ويتوقى حطها عن مراتبها وأن يخلطها بالعامة ، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجة الملوك ، ويعد لكل معنى ما يليق به ولكل طبقة ما يشاكلها)(٣) .

وهذا الأمر قد تنبه إليه النقاد والأدباء قبله من أمثال بشر بن المعتمر فى صحيفته وأبى تمام فى وصيته والجاحظ فى البيان والتبيين .

ونراه يشير إلى الوحدة الفنية فى النقد العربى وهو يحدد خصائص الشعر الجيد بقوله (وأحسن الشعر ، ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل)(٤) .

---

(١) نفسه : ١٢ (٢) نفسه : ٩

(٣) نفس المصدر السابق : ٦ .

(٤) نفس المصدر السابق : ١٢٦ .

ويؤكد هذه الوحدة الفنية فى القصيدة العربية بقوله (ويجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة فى اشتباه أولها بآخرها نسجاوحسنا وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف .

ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعانى خروجا لطيفا لا تناقض فى معانيها ولا وهى فى مبانيها ولا تكلف فى نسجها تقضى كل كلمة مابعدها ويكون مابعدها متعلقا بها مفتقراً اليها ، فإذا جاء الشعر على هذا المثيل سبق السامع إلى قوافيه قبل أن ينتهى اليها راويه .

— ويتحدث عن المحدثين فيقول (وستعثر فى أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم ولطفوا فى تناول أصولها منهم — والمحنة على شعراء زماننا فى أشعارهم أشد منها على من قبلهم لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح وحيلة لطيفة وخلابة ساحرة (١) .

وفى حديثه هذا الذى ينصف فيه المحدثين إشارة إلى قضيتين من أهم قضايا النقد العربى وهما قضية القديم والحديث وقضية السرقات .

ونجد ابن طباطبا يؤمن بتوارد الخواطر على المعنى الواحد ومثل له برثاء أرسطا ليس للإسكندر « طالمـا كان هذا الشخص واعظا ، بليغا وما وعظ بكلامه موعظة قط أبلغ من وعظه بسكوته فى هذا المعنى قال رسول الله ﷺ « تركت فيكم واعظين ناطق وصامت فالناطق القرآن والصامت الموت» .

وقال أبو العتاهة :

وكانت فى حياتك لى عظات فأنت اليوم أبلغ منك حيا

---

(١) عيار الشعر : ٧

— وهو يقترح على الأدباء فكرة الاستيحاء والتثقف بآثار السابقين لا نقلها أو محاولة السرقة منها . فهو يطلب من الشاعر أن (يديم النظر فى الأشعار لتلصق معانيها بفهمه وترسخ أصولها فى قلبه ، وتصير موادلطبعه ويذوب لسانه بألفاظها فإذا جاش فكره بالشعر أدى اليه نتائج ما استفاده مما نظر فيه من تلك الأشعار . فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف التى تخرجها المعادن ، وكما قد أغترف من روافد مدته سيول جارية من شعاب مختلفة و وكطيب تركب من أخلاط من الطيب كثيرة فيستغرب عيانه ويغمض مستنبطه) (١) .

— وهو يكثر من الأمثلة والشواهد الشعرية والأخبار والروايات للتدليل على وجهة نظره وهـذا من النقد المعلل . وقد تأثر ابن طباطبا بالنقاد والسابقين قبله من أمثال ابن قتيبه والجاحظ كما أضاف وجهات نظر وآراء جديدة أخذها عنه اللاحقون من النقاد أوعارضوها .

فقد انتفع كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى و كتاب الموشح للمرزبانى كما انتفع به المرزوقى فى مقدسته لشرح ديوان الحماسه ونقل عنه(٢) .

وألف الآمدى صاحب الموازنة بين أبى تمام والبحترى كتابا يناقض به كتاب عيار الشعر ويرد فيه على صاحبه(٣) .

---

(١) عيار . م السابق : ١٠
(٢) مقدمة عيار الشعر ح ١
(٣) ترجمة الآمدى إنباه الراواه ١/٢٨٨ ط دار الكتب ١٩٥٠

كتاب أخبار أبي تمام لأبي بكر بن يحى الصولى ت ٣٣٥ هـ .

وأهم مافى هذا الكتاب هو الرسالة التى وجهها الصولى إلى أبى الليث مزاحم بن فاتك وهو من ألف من أجله كتابه فجاءت كمقـــدمة له وقد استغرقت من ص ١ - ٥٩ . وتضمنت الآراء النقدية للصولى ودفاعه عن أبى تمام وحججه فى هذا الدفاع .

— وفى هذه الدراسة يعقد موازنة بين الألفاظ والصور عند المحدثين والقدماء ، وقد خرج من هذه الدراسة بحكم وسط سوى بين الفريقين ؛ فالمحدثون فيما لم يروه دون القدماء ، والقدماء فيما لم يشاهدوه دون المحدثين وكل منهما أقوى وأنضج إذا وصف ماشاهده وعاناه(١) .

أما المعانى فمع أن المتأخرين إنما يجرون فيها بريح المتقدمين ويصبون فى قوالبهم ويستمدون بلغاتهم وينتجعون كلامهم ، إلا أنه مع ذلك قلما أخذ أحد منهم معنى من متقدم إلا أجاده وقد وجدنا فى شعر هؤلاء معانى لم يتكلم القدماء بها ومعانى [illegible] اليها فأتى بها هؤلاء وأحسنوا فيها وشعرهم بعد ذلك أشبه بالزمان والناس له أكثر استعمالا فى مجالسهم وكتبهم وتمثلهم ومطالبهم (٢) .

وميله إلى الشعراء المحدثين غير خاف ولا مستتر وله ما يبرره وهو سنة التطور .

— ونجد عند الصولى حديثا عن السرقات تأثر فيه بآراء السابقين من أمثال ابن قتيبة فى الشعر والشعراء قال (إن حكم النقاد للشعر والعلماء

---

(١) أخبار أبى تمام : ١٦

(٢) ن م السابق ١٧

به قد قضى بأن الشاعرين إذا تعاورا معنى ولفظا أن يجعل السبق لأقدمها سناً أو أولهما موتا ما وينسب الأخذ للمتأخر لأن الأكثر كذا يقع ، وإن كان في عصر واحد ألحق بأشبههما به كلاما فإن أشكل ذلك تركوه لهما) (١).

وإذا كان ابن قتيبة قد سوى بين الأعشى وأبي نواس أي بين صاحب الفكرة ومن زاد فيها الصولي يرى أن الشاعر إذا أخذ معنى وزاد عليه ورشحه كان أحق به (٢)

— والصولي من الذين يؤمنون بالتخصص في النقد كما هو الشأن في سائر العلوم والصناعات والمتخصص الحق هو من حلق بجناحين اثنين هما الاستعداد والاجتهاد (٣) (فليس من أجابه طبعه إلى فن من العلوم أوفنين أجابه إلى غير ذلك ، وقد كان الخليل بن أحمد أزكى العرب والعجم في وقته بإجماع أكثر الناس فنفذ طبعـــه في كل شيء تعاطاه ثم شرع في الكلام فتخلفت قريحته ووقع منه بعيدا) (٤)

— وقد وافق الصولي عبد الله بن المعتز في عزل الدين والأخلاق عن الأدب والشعر : أدعى قوم الكفر على أبي تمام بل حققوه وجعلوا ذلك سببا للطعن على شعره وتقبيح حسنه فما كان جواب الصولي إلا أن قال : وما ظننت أن كفراً ينقص من شعر ولا أن إيمانا يزيد فيه وماضر الأربعة الذين أجمع العلماء على أنهم أشعر الناس (امرأ القيس والنابغــة الذبياني وزهير والأعشى كفرهم في شعرهم وأنما ضرهم في أنفسهم ولا رأينا جريرا

(١) أخبار أبي تمام ١٠٠
(٢) نفســـه : ٥٣
(٣) القاضي الجرجاني والنقد الأدبي ١٦٩
(٤) أخبار أبي تمام ١٢٦ ، ١٢٧
(٥) أخبار أبي تمام : ١٧٢

والفرزدق يتقدمان الأخطل عند من يقدمهما عليه بإيمانهما وكفره ، وإنما تقدمهما بالشعر . وقد قدم الأخطل عليهما خلق من العلماء ، وهؤلاء الثلاثة طبقة واحدة وللناس في تقديمهم آراء .

— تحدث عن عيوب القدماء .

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ت ٣٥٦ هـ

ومع أن هذا الكتاب ليس متخصصا فى النقد فإن أبا الفرج فى أحيان كثيرة يصدر أحكاما على الشعراء أو على شعرهم وهذه الأحكام تتسم فى الغالب بالدقة .

وقد يروى روايات تتضمن ذلك أو نحوه مثل قوله عن ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب قالت : مررت بعبد الله بن مصعب وأنا داخله منزله وهو بفنائه ومعى دفتر فقال : ماهـذا معك ؟ ودعانى بجئته وقلت شعر عمر بن أبى ربيعة فقال : ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر بن أبى ربيعه أن لشعره لموقعا فى القلوب ومدخلا لطيفا لوكان شعـر يسمر لكان هو فارجعى به قالت ففعلت (١)

ومثل قوله : كان الأصمعى يقول : بشار خاتمة الشعراء والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم (٢)

ويورد بعض الآثار الدالة على قيمـة المربى والمنشأ فى تقويم اللسان وسلامة اللغة فيروى عن أحمد بن المبارك قال: حدثنى أبى قال : قلت لبشار: ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال منه شيئا أستنكرته العرب

---

(١) الأغانى ١/٧٨

(٢) الأغانى ٣/١٤٣

من ألفاظهم وشك فيه ، وأنه ليس فى شعرك مايشك فيه . قال : ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت هنا ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل مافيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وأن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت فمن أين يأتينى الخطأ (١)

والخبر يوضح أهمية المربى والنشأة فى تقويم اللسان هذا .

— وقد قال بالنقد الجلى وذلك فى حديثه عن أبى تمام قال (وليت أساءة من أساء فى القليل وأحسن فى الكثير مسقطة إحسانه ولو كثرت إساءته أيضا ثم أحسن لم يقل له عند الإحسان أسأت ولا عند الصواب أخطأت والتوسط فى كل شيء أجمل والحق أحق أن يتبع (٢) .

وأمثلة هذه الإشارات واللفتات النقدية كثيرة فى كتاب الأغانى تنم عن ذوق المؤلف وموهبته النقدية .

الموازنة بين أبى تمام والبحترى، لأبى القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى، ت ٣٧١ هـ

والكتاب كما يتضح من عنوانه يهدف إلى إقامته موازنة بين الشاعرين للتوصل إلى أيهما أفضل والأفضلية ليست مطلقة وإنما بحسب الموضوعات التى يقيم حولها المؤلف الموازنة .

وقد درس فية المؤلف شعر كل من الشاعرين كما تعرض فيه لكثير من شئون الشعر العربى عامة والمحدث منه خاصة .

---

(١) الأغانى ٣/١٥٠

(٢) عن القاضى الجرجانى والنقد الأدبى : ١٧٥

وأسلوب الآمدى فى الموازنه فى أسلوب لم يمهد من قبل فهو يبدأ الموازنة بين البحترى وأبى تمام بأن يورد حجج أنصار كل شاعر وأسباب تفضيلهم له ثم يدرس سرقات أبى تمام وأخطائه وعيوبه البلاغية ويفعل ذلك مع البحترى مورداً سرقاته ، خصوصا سرقاته من أبى تمام ثم أخطاءه وعيوبه .

وأخيراً ينتهى إلى الموازنة التفصيلية بين ماقاله كل منهما فى كل معنى من معانى الشعر يقول :

وأنا أبتدىء بما سمعته من احتجاج كل فرقة من أصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى عند تخاصمهم فى تفضيل أحدهما على الآخر، وما ينعاه بعض على بعض لتتأمل ذلك وتزداد بصيرة وقوة فى حكمك أن شئت أن تحكم ، وأعتقادك فيما لعلك تعتقد احتجاج الخصمين به(١)

ثم يورد حجج كل فريق ورد الفريق الآخر عليه والآمدى قد أورد تلك الحجج كما انتهت اليه ولم تكن من وضعه هو وكل فضله فيها هو فضل الجمع والعرض والربط وعندما انتهى من هـــذا الفصل قال : (تم احتجاج الخصمين بحمد الله) .

وأنا أبتدىء بذكر مساوىء هـذين الشاعرين لأختم بذكر محاسنهما وأذكر طرفا من سرقات أبى تمام ، وغير ذلك من غلط فى بعض معانيه ثم أوازن من شعريهما بين قصيدتين إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية ثم بين معنى ومعنى ، فإن محاسنهما تظهر فى تضاعيف ذلك وتنكشف ثم أذكر ما أنفرد به واحد منهما بجود من معنى سلكه وبابا للأمثال أختم به الرسالة ، وأضع ذلك بالاختيار المجرد من شعريهما وأجمله على حروف المعجم ليقرب متناوله ويسهل حفظه وتقع الإحاطة به) (٢)

---

(١) الموازنة : ٣

(٢) الموازنة : ٢٢

ويبدو من منهجه الذى نص عليه (روحه فى الدراسة وهى روح ناضجة روح منهجية حذرة يقظه ، وهو يتناول الخصومة كرجل بعيد عنها يريد أن يجمع عناصرها ويعرضها ويدرسها ، فإن قصر حكمه على الجزئيات التى ينظر فقد يكون البحترى أشعر فى باب من أبواب الشعر أو معنى من معانيه .

وقد يكون أبو تمام أشعر فى ناحية أخرى وأما إطلاق الحكم وتفضيل أحدهما على الآخر فهذا ما يرفضه الآمدى) (١) .

يقول الآمدى (ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندى لتباين الناس فى العلم واختلاف مذاهبهم فى الشعر ، ولا أرى لأحد أن يفعل ذلك فيستهدف لذم أحد الفريقين . لأن الناس لم يتفقوا على أى الأربعة أشعر : أمرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى ، ولا فى جرير والفردق والأخطل ، ولا بشار ومروان ولا فى أبى نواس وأبى العتاهيه ومسلم ، لاختلاف آراء الناس فى الشعر واختلاف مذاهبهم فيه ، فإن كنت أدام الله فضلك ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء ، فالبحترى أشعر عندك ضرورة ، وإن كنت تميل إلى الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوى على غير ذلك ، فأبو تمام أشعر عندك لا محالة .

فأما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ولكن أقارن بين من شعريهما إذا اتفقنا فى الوزن والقافية وإعراب القافيه وبين معنى ومعنى فأقول أيهما أشعر فى تلك القصيد وفى تلك ، ثم احكم أنت حينئذ على جملة ما لكل واحد منهما إذا أحطت علما بالجيد والردىء) (٢) .

---

(١) النقد المنهجى عند العرب : ١٠٠ (٢) الموازنة : ٣

(فالآمدى لا يريد أن يتحيز لأيهما على غير بينة أو عن هوى ، وإنما يلاحظ أن من ينتصر لهـذا الشاعر أو ذاك إنما يفعل ذلك لميله إلى اتجاه خاص فى الشعر .

وأما هو فلا يريد أن يفصح بتفصيل أحدهما على الآخر تفصيلا مطلقا ولكنه يعقد موازنات موضعية ويترك الحكم الإجمالى للقارىء .

وهذا منهج على سليم منهج رجل يرى المذاهب المختلفة ويقبلها ويسجلها ، ثم منهج ناقد يرفض كل تعميم مخل ويقصر أحكامه على ما يعرض له من تفاصيل) (١)

ولكن هل سار الآمـــدى على المنهج الذى وضعه وكان حياديا ؟ بمعنى أنه لم ينحاز إلى أحد الشاعرين :

كثير من النقاد القدماء والمحدثين اتهموا الآمدى بالتعصب على أبى تمام والانحياز للبحترى . والسبب فى ذلك يرجع إلى أن ذوق الآمدى الذى كان مع البحترى فهو يفضل طريقته أو هو يفضل الذوق السليم الصادر عن طبع لا عن تكلف.

يقول مندور (٢) (وبالرجوع إلى كتاب الموازنة نجد أن المؤلف لم يتعصب للبحترى كما لم يتعصب ضد أبى تمام ، وإنما هذه تهمة اتهمه بها النقاد اللاحقون عندما فسد الذوق وغلبت الصنعة والتكلف على الأدب العربى .

ونظر هؤلاء الأدباء المتأخرون فى بعض انتقادات الآمدى لسخافات أبى تمام ووساوسه ولم يوافقوا على الانتقادات لمرض أذواقهم فقالوا

---

(١) النقد المنهجى عند العرب ١٠١
(٢) النقد المنهجى عند العرب ١٠٢ ، ١٠٣

أن الرجل متعصب على أبي تمام وهذا ظلم يجب أن نصلحه والتهمة لا تقوم بعد على استقصاء لأقواله ولا تصدر عن نظر شامل في كل ماقاله ، وإلا لرأوا أنه قد أعجب بأبي تمام في غير موضع ودافع عنه أكثر من مرة كما أنه لم يحجم عن أن ينتقد البحتري نقداً مراً كلما وجد فيه مغمزاً وأن يفضل عليه أبا تمام .

وهذه وقائع يجب أن نظهرها لأنه لا يكفي لكي نتهم الآمدي بالتعصب أن نورد مثلا أو مثلين نخالفه فيهما ثم نستنتج أنه ضد أبي تمام أو أنه تعصب للبحتري .

والذي لا شك فيه أن الآمدي لم يكتب كتابه أيام عنف الخصومة بين أنصار أبي تمام والبحتري ، وذلك لأن أبا تمام ت ٢٣١ هـ والبحتري ت ٢٨٥ هـ والمعركة قد احتدمت فيما يظهر بعد موتهما مباشرة حتى بلغت أقصاها في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع .

وأما الآمدي فقد جاء بعد أن كان الزمان قد هدأ من حدة هذه الخصومة ، وكان الأدباء قد أخذوا في الاقتتال حول رجل آخر هو المتنبي.

جاء الآمدي بعد تراخي الزمن فوجد عدة رسائل في التعصب لهذا الشاعر أو ذاك كما وجد ديوانيهما قد جمعا ، وتعددت منهما النسخ قديمة وحديثه .

ونظر في كل الكتب فوجد فيها إسرافا في الاحكام وعدم دراسة تحقيقية وضعفا في التعليل أو قصوراً فتناول الخصومة بمنهج علمي أشبه ما يكون بمناهجنا اليوم بحيث نعتقد أن هذا الكتاب خير ما نستطيع أن نضعه بين أيدي الدارسين كمثل يحتذى للمنهج الصحيح(١) .

والأسس التي قامت عليها آراء الآمدي في كتابه هي :

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ١٠٢ ، ٣٠١

١ — النظر فى صحة نسب الشعر الى قائله وهو فى هذا تلميذ لابن سلام .
٢ — تحقيق النصوص بالرجوع الى كل النسخ .
٣ — الانصاف والعدل واستقامة الرأى فلا يتعصب لأحد ضد أحد .
٤ — الذوق والطبع وهما من أقوى دعائم النقد عنده .
٥ — الفصل بين الشعر والعلم والفلسفة .
٦ — الرواية ، فهو فى دراسة للأخطاء يعتمد على تقاليد العرب فى اللغة والأدب .
٧ — ذكاؤه .
٨ — خبرته .
٩ — ثقافته .

أما أراؤه النقديه فهى مزيج من الدراسة التاريخية والإلتفاتات النفسية والملاحظات الفنيه(١) وذلك يتضح من :

— يستوحى ابن المعتز فى تاريخه للبديع ورده إلى مصادره الأولى من الشعر القديم والقرآن الكريم ، ويتابع تطوره وانتقاله من القدماء الى المحدثين ثم من مسلم بن الوليد الى أبى تمام ويعلل فنه وجودته قديما وكثرته ورداءته حديثا بطبع القدماء وتكلف المحدثين(٢) .

يسجل تحامل اللغويين على الشعراء المحدثين ويفهم من كلامه أن هذا التحامل لا يرضيه ، كان ابن الأعرابى شديد التعصب على أبى تمام لغرابة مذهبه وكان يقول فى شعره إن كان هذا شعر فكلام العرب باطل ، وقد أنشد يوما أبياتا من شعره وهو لا يعلم قائلها فاستحسنها وأمر بكتابتها فلما عرف أنه قائلها قال : خرقوه .

(١) القاضى الجرجانى والنقد الأدبى ١٧٨
(٢) الموازنة : ٦ — ٧

وقد سبقه الأصمعى إلى هذا الموقف من شعر المحدثين ، وذلك أن إسحاق الموصلى أنشده :

هل إلى نظرة إليك سبيل   فيروى الصدى ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندى   وكثير ممن تحب القليل

فقال : لمن تنشدنى ؟ فقال : لبعض الأعراب ، فقال هذا هو الديباج الخسروانى قال : إنه لليلتهما . فقال : لا جرم والله إن اثر الصنعة والتكلف بين عليهما(١) .

اقتفى الآمدى أثر المبرد وأبى الفرج الأصفهانى فى النقد الجلى وهو يقول على لسان أبى تمام (لسنا نمنع أن يكون صاحبنا قد وهم فى بعض شعره وعدل عن الوجة الأوضح فى كثير من معانيه ، وغير منكر لفكر نتج من المحاسن ما نتج وولد من البدائع ما ولد أن يلحقه الكلام فى الأوقات والذلل فى الأحيان ، بل الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح فى سهوه ويتجاوز عن زلله .

ومن قبيل النقد الجلى ما ذكره على لسان صاحبه أبى تمام من أخطاء الجاهليين فقد سرد كثيراً من هذه الأخطاء ثم قال: ولو استقصينا هذا الباب لطال جداً وإنما أوردناها هنا منه مثالا لتعلموا أن فحول الشعراء الذين غلبوا عليه ، وفتحوا معانيه وصاروا قدوة واتبعهم الشعراء واحتذوا على حذوهم وبنوا على اصولهم ما عصموا من الزلل ولا سلموا من الغلط ومع ذلك لم يكن أحد من متقدم ولا متأخر فى خطئه ولا سهوه وغلطه بجهول الحق ولا مجحود الفضل بل عفى عندكم إحسانه على اساءته ، وعلا تجويده على تقصيره ، فكيف خصصتم أبا تمام بالطعن وعبتموه دون سواه بالزلل والوهن ولم يكن ذلك بدعا ولا منفردا ولا إليه سابقا ؟(٢) .

(١) الموازنة : ١٠
(٢) الموازنة : ١٥   (٣) الموازنة : ٢٠ - ٢١

درس الآمدى موضوع السرقات وانتهى من ذلك الى الحقائق الآتيه :

(أ) أهل العلم بالشعر على عهده لم يكونوا يرون سرقات المعانى من كبير مساوى الشعراء وخاصة المتأخرين منهم اذ كان هذا الباب ما تعرى منه متقدم ولا متأخر(١) .

(ب) يحكم بالسرقة فى المعنى البديع المخترع الذى اختص به الشاعر لا فى المعانى المشتركة بين الناس التى هى جارية فى عاداتهم ومستعلة فى أمثالهم ومحاوراتهم مما ترتفع فيه الظنة عن الذى يورده أن يقال أخذه من غيره(٢) .

(ج) الألفاظ المباحة غير محظوره ما دامت الفاظا مفردة أى كلمات فإن هى ركبت أى صارت اسلوبا أو أساليب فهى محظورة(٣) .

(د) غير منكر على شاعرين متناسبين من أهل بلدين متقاربين أن يتفقا فى كثير من المعانى ولا سيما ما تقدم الناس فيه وتردد فى الاشعار ذكره وفى الطباع والاعتياد من الشاعر وغير الشاعر استعماله(٤) .

(هـ) لا ينبغى القطع بأى الشاعرين أخذ من صاحبه اذا كانا فى عصر واحد(٥) .

— يرفض الآمدى كثيرا من الشعر بدعوى أنه خلاف ما عليه العرب وضد ما يعرف من معانيها .

— والآمدى مثل معظم النقاد يميل الى الطبع وان سمح بالصنعه فهى الصنعة المستحسنة السهلة القريبة من الطبع اما تعقيدها والإكثار منها فهو ما لا يرضاه ويعيب الشاعر أشد العيب إذا قصده أو تعمده لأن فيه مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة وذلك يخرج سهل التأليف الى سوء التكلف ولأن

(١) نفسه : ٦١ ، ١٣١
(٢) نفسه : ٢٢، ٤٢، ٥٦، ٥٨، ٦٠، ٤٩
(٣) الموازنه ٥٨ ، ١٤٩
(٤) الموازنه : ٢٢ ، ٢٣
(٥) الموازنه : ٢٥

لكل شيء حداً اذا تجاوزه المتجاوز سمي مفرطا وما وقع الإفراط في شيء الإشانه .(١)

ويتصل بميل الآمدي للطبع هذا الكلام الذي يشرع به لاستعمال الغريب الوحشي قال (إذا كان الغريب يستحسن من الاعرابي القح الذي لا يتعمل له ولا يطلبه ، وإنما يأتي به على عادته وطبعه فهو من المحدث الذي ليس هو من لغته ومن الفاظه ولا من كلامه الذي تجري عادته به أحرى ان يستهجن ، ولهذا أنكر الناس على رؤبة استعمال الغريب الوحشي وذلك لتأخره وقرب عهده حتى زهد كثير من الرواة في رواية شعره إلا أصحاب اللغة)(٢) .

— ولزوم الطبع للناقد لا يقل في الأهمية عن لزومه للشاعر فكل انسان مستعد بطبعة لجنس من العلوم أو الفنون ، وما يصلح لهذا الجنس أو ذاك قد لا يصلح لغيره وهذا معناه أن كل واحد منا يولد ومعه استعداده أي طبعه وعليه أن يتعرف عليه ويتبينه أو يترك لغيره اكتشاف ذلك ، المهم ألا يخاطر بنفسه فيما لا يوائم ملكاته أو يزج بها فيما لا يناسب قواه فقد يتأتى له جنس من العلوم ويسهل ويمتنع عليه جنس آخر ويتعذر لأن كل امرىء انما يتيسر له ما في طبعه قبوله وما طاقته تعلمه .

— والآمدي يؤمن بالتخصص وبأن لكل صناعة أهلها الخبيرين بها والمتبحرين فيها ، وما دام الأمر كذلك فيجب أن ترجع في الشعر الى أهل العلم به — وهم النقاد — واذا استفتيناهم فيجب أن نقبل ما يفتونا به ولو كان غير معلل . ففي مجال الفنون تكثر الاشياء التي تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة وكذلك الشعر قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيفضل أهل العلم به أحدهما على الآخر بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبرعنه اللسان ولهـــذا كان من الواجب أن يسلم لأهل كل صناعة صناعتهم

---

(١) الموازنه : ١١١ — (٢) نفسه : ١٢٨ ، ١٢٩

ولا يخاصمهم فيها ولا ينازعهم الا من كان مثلهم فى الخبرة وطول الدربة والممارسة(١) .

— والآمدى يقول بفنية الشعرفالشاعر لايطالب بأن يكون قوله كله صدقا ولا أن يوقعه موقع الانتفاع به لأنه قد يقصد إلى أن يوقعه موقع الضرر(١) .

وهو يشير بذلك إلى أن الدين بمعزل عن الشعر وقد رأى صاحب الوساطة بعده هذا الرأى .

رسالة الكشف عن مساوىء شعر المتنبي للصاحب بن عبادت ٣٨٥هـ :

وهى رسالة صغيرة تقع فى ست وعشرين صفحة من الحجم الصغير وقد اشتملت على أراء نقدية عامة قد يكون أهمها :

— ما نجده من الدعوة إلى الإنصاف (فالهوى مركب يهوى صاحبه وظهر يعبر راكبه والناس على اختلافهم وتباين صنوفهم متفقون على أن تغليب الأهواء طمس أعين الآراء وأن الميـــل إلى الحق يهم سبل الصدق)(٢) .

وهذه الدعوة نبيلة وقد سبقه إليها النقاد من أمثال الجاحظ وابن قتيبة والآمدى وغيرهم .

— وهو يؤمن بالتخصص ويرى أن الناس يضربون على غير هدى فى النقد بل إنهم ليرفعون أصواتهم فوق صوته وفى وجهه وهو من هو فى نظر نفسه ولاعجب فقد بلى بزمن يكاد المتسم فيه أن يعلو الغارب ، ومنى بأعيار أغمار لايضرعون لمن حلب الأدب أفاويقه والعلم أشطره لاسيما علم الشعر فهو فوق الثريا وهم دون الثرى ، وقد يوهمون أنهم يعرفونه فإذا

---

(١) الموازنة ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) الكشف عن مساوىء المتنبى : ٢ ط مطبعة القدس القاهرة ١٣٤٦هـ

(٣) الكشف عن مساوى المتنبى : ٢ ط مطبعة القدس القاهرة ١٣٤٦هـ

حكموا رأيت بهائم مرسنة ، وأنعاماً مخيلة(١) .

وهو يرى احترام رأى الخبراء والنزول على ما يقوله النقاد ويعجبه فى هذا المقام بعض ماتقدم من كلام الجاحظ فيثنى عليه به قائلا ، لله در أبى عثمان لقد غاص على سر الشعر واستخرج أدق من الشعر ، ويسترسل موضحا رأيه مدللا على صدقه بالأخبار والروايات .

يقول : وفى هذا النمط ماحدثنى به محمد بن يوسف الحمادى قال : حضرت بمجلس عبيد الله بن طاهر وقد حضره البحترى فقال : يا أبا عبادة أمسلم أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس ، فقال له عبيد الله أن أحمد بن يحى ثعلبا لا يوافقك على هذا . فقال : أيها الأمير : ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله فإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه فقال : ورِيت بك زنادى يا أبا عباده إن حكمك فى عميك أبى نواس ومسلم وافق حكم أبى نواس فى عميه جرير والفرذدق فإنه سئـــل عنهما ففضل جريراً فقيل له إن أباعبيدة لا يوافقك على هذا فقال : ليس هذا من علم أبى عبيدة فإنما يعرفه من دفع إلى مضايق الشعر(٢) .

— وحين يأخذ فى نقد المتنبى ينبه إلى أنه سوف لا يعيبه بالسرقة لاتفاق شعراء الجاهلية والإسلام عليها ، ولكنه يعيبه لجحوده ، أو جبنه الذى يسوغ له أن يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحترى وغيره جل معانيهم ثم يقول : لا أعرفهم ولم أسمع بهم ، وإذا أنشد أشعارهم قال : هذا شعر عليه أثر التوليد(٣) .

وكان الصاحب يرى أن السرقة داء قديم وأن المحدثين فيها معذورون(٤)

(١) المصدر السابق ٣ .
(٢) الكشف عن مساوىء شعر المتنبى ٤ .
(٣) المصدر السابق ١١ .   (٤) الوساطة ٧٨ .

- يرى أن شعر الشاعر الواحد يختلف حسنا ويتردد بين الجودة والرداءه لأنه ليس من شاعريته أو طبعه على ميعاد بل هو وحظه إن اسعفته شاعريته وساعدته فطرته أحسن وأجاد وإن تخلت عنه أساء والصاحب يبرهن على ذلك بتفاوت شعر المتنبى وكان يعتذر عن هذا التفاوت بقوله : وأى عالم لايهفو : وأى صارم لاينبو وأى جواد لايكبوا ..

الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي عبد العزيز الجرجاني ت ٣٩٢هـ:

ألف هذا الكتاب بعد احتدام الجدل والخصام حول المتنبي فانصاره لايرون له عيبا وخصومه لايرون فيه حسنة وكلاهما مفرط في حبه وكراهيته ، والموقف يحتاج إلى قاض محايد يفصل بين المتخاصمين وكان الجرجاني هو الحكم والوسيط في كتابه .

ويمكن تقسيم الكتاب إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول يعد بمثابة المقدمة حيث أوضح فيه المؤلف منهجه في النقد تمهيداً للدفاع عن المتنبي فيعرض لأخطاء الجاهليين حتى يلتمس العذر فيما أخطأ فيه ، ثم يتناول مشكلة تفاوت شعر الشعراء تبعا لأزمنتهم وبيئاتهم وموضوع شعرهم ، بل وتفاوت شعر الشاعر الواحد واختلافه جودة ورداءة كما نرى عند أبي تمام ، وهنا يستعرض تاريخ الشعر العربي وانتهائه إلى البديع وأوجه البديع التي يفضلها ، بعد أن ظفر بتفضيله للشعر المطبوع شعر البحتري وجرير وذي الرمة وغزليي الحجاز .

القسم الثاني : وهو دفاع عن الشاعر (المتنبى) ويتضح فيه منهج الناقد المدافع ، منهج من يقيس الأشباه والنظائر(١) .

---

(١) النقد المنهجي : ٢٧٦ .

فإن كان المتنبي قد أخطأ أو أحال أو سرق فقد فعل ذلك غيره كما أن له إلى جانب ذلك الشعر الجيد المطبوع الأصيل .

يحاول أن ينصف الشاعر فلا يناقش ما خطأه النقاد فيه بل يقيسه بأشباهه عند الشعراء المتقدمين ، وعنده أنهم لم يسلموا هم أيضا من الخطأ يقول [ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية ، فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه .

إما في لفظه ونظمه أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه أو إعرابه ؟ ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة ، لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة مسترذلة ومردودة منفية ولكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ونفى الظنة عنهم ، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب ، وقامت بالاحتجاج لهم كل مقام » .

القسم الثالث : وهذا القسم هو القسم الذي تصدق تسميته بالوساطة فالناقد يتناول ما عيب على أبي الطيب في شعره وما أخذه عليه العلماء من مآخذ ، يناقشه ويحلله ويفصل القول فيه ، وهذا هو الجزء الذي نجد فيه النقد الموضعي الدقيق وربما كان خير ما في الكتاب[1] .

ويبدأ المؤلف دفاعه بأن يحدد الخصوم ويقسمهم إلى قسمين :

١ — أولئك الذي لا يرون فضلا إلا للمتقدمين من جاهليين وأمويين ومن الطبيعي أن يكون موقف هؤلاء من المتنبي موقفا سيئا فيتعرضون له بالتجريح .

---

(١) النقد المنهجي : ٢٧٧

٢ — أولئك الذين يسلمون بفضل أبى تمام وحزبه ومع ذلك يهاجمون المتنبى وهؤلاء قوم مغرضون أفسد الهوى أحكامهم وأتلف الحسد نظراتهم .

والمؤلف يرى أن المتعصبين للقديم يسرفون فى ذم المحدثين ويظلمونهم عندما يرفضون شعرهم بجملته ، مع أن هؤلاء المحدثين أجدر بأن يترفق فى الحكم عليهم (ولو أنصف أصحابنا هؤلاء لوجدوا يسيرهم أحق بالاستكثار وصغيرهم أولى بالإكبار ، لأن أحدهم يقف محصوراً بين لفظ ضيق مجاله وحذف أكثره وقل عدده وحظر معظمه ، ومعان قد أخذ عفوها وسبق إلى جيدها ، فأفكاره تنبث فى كل وجه ، وخواطره تستفتح كل باب ، فإن وافق بعض ما قيل أو احتاز منه بأبعد ، قيل سرق بيت فلان وأغار على قول فلان ، ولعل ذلك البيت لم يقرع قط سمعه ولامر بخلده ، كأن التوارد عندهم ممتنع ، واتفاق الهواجس غير ممكن ، وإن اقترع معنى بكراً أو افتتح طريقا مبهما ، لم يرض عنه إلا بأعذب لفظ وأقربه من القلب وألذه فى السمع ، فإن دعاه حب الإغراب وشهوة التنوق إلى تزيين شعره وتحسين كلامه فوشحه بشىء من البديع وحلاه ببعض الاستعارة قيل هذا ظاهر التكلف بين التعسف ، ناشف الماء ، قليل الرونق ، وان قال ما سمح به الهاجس قيل لفظ فارغ وكلام غسيل فإحسانه يتأول وعيوبه تتحمل وزلته تتضاعف وعذره يكذب) .

وهذه الطائفة لا يشغل الناقد بها نفسه فهدفه هو النظر بين المتنبى وأهل عصره وليس الموازنة بينه وبين القدماء يقول (وإنما خصمك الألد ومخالفك المعاند الذى صمدت لمحاكمته وابتدأت لمنازعته ومحاجته ، ومن استحسن رأيك فى إنصاف شاعر ثم الزمك الحيف على غيره وساعد على تقديم رجل ثم كلفك تأخير مثله ، فهو يسابقك إلى مدح أبى تمام والبحترى ويسوغ لك تقريظ ابن المعتز وابن الرومى ، حتى إذا ذكرت أبا الطيب

ببعض فضائله واسميته فى عداد من يقصر عن رتبته أمتعض أمتعاض الموتور ، ونفر نفر المضيم ، فغض طرفه وثنى عطفه (١) وصعر خـــده وأخذته العزة بالإثم وكأنما روى بين عينيه المحاجم) (٢) .

وهذه هى الطائفة التى يحاجها الجرجانى بنوع خاص إذ لا يرى وجها لمن يعجب بالمحدثين ثم يحمل على المتنبى .

والحكم عــلى المتنبى لا يكون إلا بأحد أمرين (فإما أن ندعى له الصنعة المحضة فنلحقه بأبى تمام ونجعله من حزبه أو ندعى له فيه شركا وفى الطبع حظا ، فإن ملنا به نحو الصنعة فضل مثل صبرناه فى جهة مسلم، وان وفرنا قسطه من الطبع عدلنا به قليلا نحو البحترى) والجرجانى يؤثر العدل فيقسم شعر المتنبى إلى قسم يتبع فيه أبا تمام وقسم يتوسط بين شعر أبى تمام وشعر مسلم بن الوليد .

وهو يعجب من أنصار الحديث لتعصبهم على المتنبى مع أن شعره من النوع الذى يروقهم بل من أجوده .

يحاج الجرجانى هؤلاء الخصوم فيقول (وأقبل عليك أيها الراوى المتعنت فأقول لك خبرنى عمن تعظمه من أوائل الشعراء ومن تفتتح به طبقات المحدثين .

هل خلص شعر أحدهم من شائبة وصفا من كدر ومعابة ؟ فإن أدعيت ذلك وجدت العيان العيان فى حجيجك والمشاهدة فى خصمك ، وعدنا بك إلى أضعاف ما صدر نابه مخاطبتك ، واستعرضنا الدواوين فأريناك ما يحول

---

(١) الحجام : شىء يجعل فى فم البعير لئلا يعض وهو بعير محجوم إذا جعل على فمه حجاما .

(٢) الوساطة ٥٢ ، ٥٣

بينك وبين دعواك ، ويحجزك إن كان بك أدنى مسكة عن قولك ، فإن قلت قد أعثر بالبيت بعد البيت أنكره وأجد اللفظ بعد اللفظ لا أستحسنه ؛ وليس كل معانيهم عندى مرضية ولا جمع مقاصدهم صحيحة مستقيمة ، قلنا لك فأبو الطيب واحد من الجملة فكيف خص بالظلم من بينها ، ورجل من الجماعة ، فلم أفرد بالحيف دونها ؟

فإن قلت : كثر زلله وقل إحسانه واتسعت معايبه وضاقت محاسنه قلنا لك : هذا ديوانه حاضراً وشعره موجوداً ممكناً هل نستبرئه ونتصفحه ثم لك بكل سيئة عشر حسنات وبكل نقيصة عشر فضائل ، فإذا أكملنا لك ذلك واستوفيته وقادك الاضطراب إلى القبول أو البهت ووقفت بين التسليم والعناد ، عدنا بك إلى بقية شعره فحاججناك به ، وإلى ما فضل بعد المقاصة فحاكمناك إليه وقد نجد كثيراً من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومى ويغلو فى تقديمه .

ونحن نستقرىء القصيدة من شعره وهى تناهز المائة أو تربى أو تضعف فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين ، ثم قد تنسلخ قصائد منه وهى واقفة تحت ظلها ، جارية على رسلها ، لا يحصل منها السامع إلا عد القوافى وانتظار الفراغ .

وأنت لا تجد لأبى الطيب قصيدة تخلو من أبيات تختار ومعان تستفاد وألفاظ تروق وتعذب ، وإبداع يدل على الفطنة والذكاء ، وتصرف لا يصدر إلا عن غزارة واقتدار ولو تأملت شعر أبى نواس حق التأمل ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه ، وعددت منفيه ومختاره ، لعظمت من قدر صاحبنا ما صغرت ، ولأكبرت من شأنه ما استقرت ، ولعلمته أنك لا ترى لقديم ولا لمحدث شعراً أعم اختلالا وأقبح تفاوتا وأبين اضطرابا وأكثر سفسفة وأشد سقوطا من شعره وهذا هو الإمام المفضل الذى شهد له خلف وأبو عبيدة والأصمعى .

وفسر ديوانه ابن السكيت ، فهل طمست معايبه محاسنه ، وهل نقص رديه من قدر جيده ؟

ونلاحظ ميل الجرجانى إلى المتنبى وعدم ميله إلى أبى نواس وابن الرومى ، وانتصاره للمتنبى لم يذهب به إلى الإحتجاج لأخطائه وتسويغها دائماً فقد وقف عند بعضها ذاهباً إلى أن المتنبى لو سكت عنها لكان أفضل وفى الكتاب إلى جانب ما يتصل بالمتنبى بحوث كثيرة فى النقد تدور حول الشعر ومنبعه وماذا ينمى الموهبة فيه ، ثم موازنة بين القدماء والمحدثين ، بحث مستفيض فى السرقات الشعرية والتعرض للمحمود والمذموم من جوانب الأخذ وقد تعرض للمعانى المشتركة والمبتكرة وكيف يتحول المشترك إلى معنى مبتكر يحسب لمبتكره .

ومن الآراء النقدية البارزة حديثه عن الأثر النفسى ودوره فى معرفة الجيد من الردىء أو المصنوع من المتكلف ، وتفرقته بين العمل الأدبى الذى يستوفى شرائطه ولكن لا يعكس جمالا وإمتاعا ، وبين العمل الأدبى الذى يقل عنه فى استيفاء شرائط الحسن ومع ذلك يلقى قبولا وارتياحاً وهو يرد ذلك إلى الذوق والنفس .

كما أنه تعرض لصفات الناقد وما يجب أن يتسم به من حياد وعدم تعصب كما عنى بدرس مقومات الشخصية الأدبية إلى غير ذلك من القضايا والموضوعات التى أفاد منها النقد العربى قديماً وحديثاً .

وكتاب الوساطة عرف قدرة القدماء والمحدثون وتحدثوا عن أثره قال صاحب اليتيمة (لما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى إظهار مساوىء المتنبى عمل القاضى أبو الحسن كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه فى شعره فأحسن وأبدع وأطال وأصاب شاكلة الصواب واستولى على الآمدى فى فصل الخطاب وأعرب عن تبحره فى الأدب وعلم العرب وتمكنه من

جودة الحفظ وقوة النقد ، فسار الكتاب سير الرياح وطار فى البلاد بغير جناح)(١) .

ويقول د. محمد مندور موازنا بينه وبين الآمدى (ويجمل الرأى فى هذا الناقد العظيم هو أنه قد أخذ بمنهج قضائى فى معظم كتابه ، وأن القسم الذى يحتوى على نقد حقيقى هو الجزء الأخير ورغم ذلك قد أورد فى الجزئين الأولين من كتابه الكثير من الحقائق الهامة عن الأدب وعن تاريخ الأدب العربى ، كما كتب عدة صفحات يجدر بنا أن نتدبرها) .

ونحن بعد نضعه فى المرتبة الثانية بعد الآمدى وذلك لأن معظم آرائه العامه عن الحقائق الأدبية قد سبقه إليها صاحب الموازنه الذى نظنه قد أثر فى الجرجانى تأثيراً قوياً ، ثم إن الآمدى قد كتب كتابه كله فى النقد الموضعى الدقيق المفصل بينما صاحب الوساطة يكتفى بالدفاع المنطقى عن شاعره ويورد له الأشعار الجيدة فى مقابل الرديئة ولكنه لا يبصرنا بمواضع الجودة أو الرداءة .

حتى إذا أنتهى إلى مناقشة خصوم الشاعر مناقشة تفصيلية لم يوفق دائماً فى نظراته .

والجرجانى كان أميل إلى المنطق والقياس منه إلى تحكيم الذوق والحس الفنى .

وأما الصفات التى نكبرها فى الجرجانى فهى صفات العلماء التى تتميز بالتواضع والحذر والنزاهة وعدم التحيز والعدل وتلك صفات تعظم بها قيمة كل نقد صحيح)(٢) .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ٣ : ٢٣٩

(٢) النقد المنهجى : ٣٠٧

كتاب الصناعتين لابى هلال العسكرى

ت ٣٩٥ هـ

والمقصود بالصناعتين (الكتابة والشعر) .

وأهم ما يميز هذا الكتاب اعتماده على التعاريف والتقاسيم وهو فى ذلك يقرب من كتاب قدامة بن جعفر « نقد الشعر » ويخالف مذهب النقاد العرب الذى يعتمد اعتماداً كبيراً على الذوق بل أننا يمكن أن نقول أن منهج صاحب الصناعتين (استمرار لقدامة بل بعث له ، وذلك واضح فى كتابه كله واضح فى منهجه التقريرى ، وغايته التعليمية ، ولولا هذا الرجل لماتت مدرسة نقد الشعر موتا نهائياً ، وقد استطاع صاحب الصناعتين بما له من درايه بالأدب العربى شعره ونثره أن يفصل آراء قدامة ويعززها بالأمثلة بل وأن يضيف إلى تقاسيم صاحب النقد وأمثاله تقاسيم جديدة)[1] .

وهذا الكتاب يعد تحول بالنقـــد الذى يعتمد على الأدب الخالص والذوق الأدبى إلى علوم البلاغة بتعاريفها الجافة يبدأ المؤلف الباب الأول بالإبانة عن موضوع البلاغة لغة وحداً ، وفى الباب الثانى يتكلم عن المعانى ويشرحها وفى الثالث عن الألفاظ وقواعد التأليف بينها ، وفى البـاب الرابع يقنن لحسن النظم وجودة الرصف ، وفى الخامس يتحدث عن الإيجاز والإطناب ، وفى السادس عن حسن الأخذ وحل المنظوم ، وفى السابع عن التشبيه ، وفى الثامن عن السجع والازدواج ، وفى التاسع عن أوجه البديع الخمسة والثلاثين ، وفى العاشر عن مبـــادىء الـكلام ومقاطعة والخروج .

---

(١) النقد المنهجى : ٢٢٢

وقد عنى أبو هلال عناية كبيرة ببـابى السجع والازدواج وأوجه البديع (مما يدل على أن الرجل كان من المعجبين بمذهب الصنعة الذى أفسد الأدب العربى فى عصوره المتأخرة)(١) .

وأبو هلال متأثر بآراء النقاد السابقين والمعاصرين له إلى جانب تأثره بمدرسة قدامة ، نلاحظ تأثره بابن قتيبة فى تمييز الكلام فهو يأخذ بنظرية اللفظ والمعنى(٢) .

وهو يأخذ عن الآمدى أمثلة كثيرة لما أخطأ فيه أبو تمام(٣) وهو وهو متأثر بالقاضى عبد العزيز الجرجانى صاحب الوساطة فى أمور كثيرة بعضها أخذه الجرجانى عن السابقين وبعضها أصيـــل من ابتكار صاحب الوساطة مثل ضرورة الذكاء والدربة والطبع — والرواية للناقد والأديب — والملاءمة بين النص الأدبى وبين من قيل له — ويرى أن الألفاظ فى لغة الأدب يجب أن تكون وسطاً بين السوقية والوحشية .

وكما نمى الجرجانى أن المتنبى كان قد نقح شعره وأغنا . وأغنى غيره من تحمل الدفاع عنه والتماس الأعذار له .

فهو يتابع الجرجانى أن فى رأيه فى المتنبى — كما تابعه تى رأيه فى محاولة أرتكاب الضرورات .

وصاحب الصناعتين يكتب فصلا كاملا فيما يحتاج الكاتب من أرتسامه وأمتثاله فى مكاتباته ، وليس هذا الفصل إلا تفصيل ما أجمله الجرجانى بقوله « وليس مارسميه لك فى هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة ،

---

(١) النقد المنهجى : ٣٣٢

(٢) مقدمة الشعر والشعراء .

(٣) ط صبيح ١١٤ وما بعدها .

ولا يختص بالنظم دون النثر بل يجب أن يكون كتابك فى الفتح أو الوعيد خلاف كتابك فى التشوق والتهنئة واقتضاء المواصلة وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنيت(١) .

وقول أبى هلال « ومن تمام حسن الرصف أن يخرج الكلام مخرجاً يكون له فيه طلاوة ما وربما كان الكلام مستقيم الألفاظ صحيح المعانى ولا يكون له رونق ولا رواء(٢) .

وهو نفس كلام الجرجانى (والشعر لا يحبب إلى النفوس بالنظر والمحاجة ولا يحلى فى الصدور بالجدال والمقايسة، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ويقربه منها الرونق والحلاوة وقد يكون الشىء متقنا محكما ولا يكون حلوا مقبولا ويكون جيدا وثيقاً ولم يكن لطيفاً رشيقاً)(٣) .

والجرجانى يميل إلى الإيجاز وكذلك صاحب الصناعتين .

والجرجانى يعترف بالسرقات المحموده ويجعلها أنواعا ومراتب وأبو هلال يخصص الفصل الأول من الباب السادس من كتابة لما سماه «حسن الأخذ» وقد استهله بقوله ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم(٤) .

وهذا الكلام فى معنى كلام صاحب الوساطة (وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه)(٥) .

---

(١) الوساطة : ٢٣
(٢) الصناعتين ١٦٥
(٣) الوساطة: ٩٦
(٤) الصناعتين ١٨٩ — ٢١٨
(٥) الوساطة ٢٠٧

ونلاحظ اتفاق الناقدين فى وسائل حسن الأخذ وأسبابه ونفس الشيء نجده فى السرقات المعيبة التى تعرض لها الجرجانى فى الوساطة فقد جمعها أبو هلال فى فصل واحد عنوانه قبح الأخذ وهو الفصل الثانى من الباب السادس .

كما تأثر أبو هلال برأى الجرجانى فى توارد الخواطر وفى أثر البيئة فى تشابه الأفكار وتقارب صور التعبير عن المعنى الواحد يقول : وإذا كان القوم من قبيلة واحدة وفى أرض واحدة فإن خواطرهم تقع متقاربة كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة(١) .

---

(١) الصناعتين ١١٩

كتاب يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي

(ت ٤٢٩ هـ)

وكتاب اليتيمة يعد من أمهات كتب الأدب وبه كثير من الآراء النقدية .

ومؤلف الكتاب جمع أخبار معاصرية من الأدباء ومن تقدمهم قليلا من أدباء القرن الرابع وأوائل القرن الخامس وسجل جيد أختياره لهم ، ومنهجه مغاير لمناهج السابقين فى تقسيم الشعراء فهو لا يقسمهم حسب مكانتهم الفنية وإنما يضعهم فى مجموعات بحسب الأقليم الذى يعيشون فيه أو البلد الذى يضمهم أو البلاط الذى يجمعهم أو الأسرة التى ينتمون إليها .

وأما نظراته النقدية فتبدو فى :

أن الثعالبى لم يقف عند ذكر شعرائه وأخبارهم وتسجيل حصائص وأختياره من نتاجهم فنجده يتناول كل شاعر من هؤلاء الشعراء بالنقد والتقويم وبيين مدى أصالته أو أتباعه كما يعمد كثيراً إلى الموازنة بين الشاعر الذى يتحدث عنه وبين غيره من الشعراء الذين تأثر بهم أو أخذ عنهم .

وإن كانت الموازنة جزئية لاتتناول العمل الفنى كوحدة كلية فى أطار فنى[1] .

وهذا بالإضافة إلى الباب الذى أورد فيه ذكر المتنبى ومحاسنة ومقابحة

(١) اتجاهات النقد الأدبى فى القرن الخامس : ٤٦

وقد استهل مقدمته بالحديث عن الشعر ومكانته وكيف أنه عمدة الأدب وعلم العرب الذى اختصت به عن سائر الأمم .

ثم أثار بعض القضايا النقدية فى عصره فتحدث عن أشعار الجاهليين والإسلاميين والمحدثين (فأشعار الإسلاميين أرق من أشعار الجاهليين وأشعار المحدثين الطف من أشعار المتقدمين ، وأشعار المولدين أبدع من أشعار المحدثين ، والمحدثون أكثر مجالا وإعجازاً وسحراً وظرفا وحسنا وطلاوة ورونقاً أوفر من شعر السابقين) .

ولذلك جمع فى يتيمته بدائع أعيان الفضل ونجوم الأرض من أهل العصر ومن تقدمهم قليلا(١) .

والثعالبى قسم يتيمته إلى أربعة أقسام بحسب التقسيم الاقليمى:

القسم الأول : عن أهل الشام وما يجاورها ومصر والموصل والمغرب .

القسم الثانى : فى محاسن أشعار أهل العراق وفصول من فصول المترسلين منهم .

القسم الثالث : فى محاسن أشعار أهل الجبال وفارس وجرجان وطبرستان وأصفهان .

القسم الرابع : فى محاسن أشعار أهل خراسان وما وراء النهر وبخاصة أهل نيسابور .

والثعالبى يدرك أثر البيئة فى النتاج الأدبى وكيف أنها تطبع شعراءها

---

(١) يتيمة الدهر: ٥/١ [illegible]

بطابع مشترك نجد ذلك فى حديثه عن شعراء الشام وتفضيله لهم على شعراء سائر البلدان(١) .

وأكبر دليل على إيمانه بأثر البيئة هو منهجه الذى اتبعه فى تقسيم شعرائه .

أما أهم الفصول المرتبطة بالنقد الأدبى فهو الفصل الذى تناول فيه أبا الطيب المتنبى .

وقد بدأه بطرف من طرف أخباره ومتصرفات أحواله(٢) .

ثم انتقل الى الحديث عما أخذه الكتاب والأدباء من شعره واستعانتهم بألفاظه ومعانيه فى كتاباتهم ، ثم ما سرقه الشعراء المعاصرون منه .

ولم يكن هذا التأثير فى الشعراء والكتاب فحسب بل أشار الثعالبى الى الحركة النقدية التى دارت حوله والى الكتب التى ألفت له أو عليه كما أشار بصفة خاصة الى كتاب الوساطة الذى شفى وكفى وبالغ فأوفى(٣) .

ثم ساق أمثلة لسرقات المتنبى من عدد من الشعراء القدماء والمحدثين الأعلام منهم والمغمورين .

ويثير إعجاب الثعالبى ما يراه فى بيت للمتنبى من اجتماع أربع مطابقات فى بيت واحد . ويرى أنه لم يسبق بذلك . وهذا المقياس النقدى لم يوجد لغيره ممن سبقه .

ثم ينتقل الى نقد شعر المتنبى فيورد ما سبق أن ذكره النقاد أمثال الصاحب بن عباد ، والقاضى الجرجانى وغيرهما من معايبه ومقابحه ومنها .

---

(١) اليتيمة ١ / ٨ (٢) نفسه ١/٩٧

(٣) نفسه ١/ ١١٠

قبح المطالع - اتباع الفقرة الغراء بالكلمة العوراء - استكراه اللفظ تعقيد المعنى - عسف اللغة والإعراب - الخروج عن الوزن استعمال الغريب الوحشى - الركالة والسفسفة بألفاظ العامة والسوقة ومعانيهم - ابعاد الاستعارة والخروج بها عن حدها الاستكثار من قول ماذا - الإفراط فى المبالغة والخروج بها الى الإحالة - تكرار اللفظ فى البيت الواحد - إساءة الأدب بالأدب الايضاح عن ضعف العقيدة ورقة الدين - الغلط بوضع الكلام بغير موضعه - امتثال الفاظ المتصوفه - الخروج عن طريق الشعر الى طريق الفلسفة - استكراه التخلص .

ثم ينتقل الى ذكر محاسنه التى زاد فيها على من تقدم وسبق جميع من تأخر ويذكر منها حسن المطلع ، وحسن الخروج والتخلص والنسيب بالأعرابيات .

وقد لاحظ الثعالبى أن له طريقة فى وصف البدويات تفرد بحسنها وأجاد ما شاء فيها ومنها : حسن التشبيه بغير أداة التشبيه والإبداع فى سائر التشبيهات والتمثيلات وحسن التصرف فى سائر الغزل ومنها التمثيل بما هو من جنس صناعته ومنها المدح الموجه ومنها مخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبه المحبوب والصديق مع الإحسان والإبداع .

وقد قرر الثعالبى أن هذا مذهب تفرد به واستكثر من سلوكه اقتدارا وتبحرا فى الالفاظ والمعانى ورفعا لنفسه عن درجه الشعراء وتدريجا لها الى مماثلة الملوك ومنها استعمال الفاظ الغـزل والنسيب فى أوصاف الجد والحرب .

وقد انفرد الثعالبى بين نقاد المتنبى فى إدراك هذه الخاصية فى شعر المتنبى (١) .

---

(١) اتجاهات النقد فى القرن الخامس : ٥٠

وأنه لم يسبق اليه وتفرد به ويعلل لذلك بأنه نوع من الحذق بحسن النقل وجودة التصرف والتلعب بالكلام ، ومنها إرسال المثل فى أنصاف البيت وإرسال المثلين فى مصراع البيت الواحد ، ومنها اقتضاص ابكار المعانى فى المراثى والتعازى ومنها الإبداع فى الهجاء وابراز المعانى اللطيفة فى الفاظ رشيقة ومنها حسن المقطع الذى لا يعرف أحد من نقاد المتنبى تعرض له الا الثعالبى .

ثم يختم الثعالبى كلامه عن أبى الطيب بذكر آخر شعره وامره .

ودراسة الثعالبى للمتنبى فى محاسنه ومقابحه موضوعية فلا تجنى فيها أو تحامل فعلى الرغم من إعجابه به فإن هذا لم يمنعه من إظهار عيوبه التى أخذها عليه النقاد والمتحاملون عليه .

والثعالبى وان كان أغلب نقـده موجزاً يتسم بالسرعة إلا اننا نجد له لمحات نقدية هامة مثل رفضه مسايرة النقاد فى ادعاء السرق على الشعراء الذين يتناولون معنى واحداً أو صورة واحدة تأثراً ببيئة واحدة ويقول بتوارد الخواطر وانتفاء السرقة — والثعالبى يدرك قيمة الوزن واثر الموسيقى فى جمال الأسلوب(١) .

وأهم ما يميز الثعالبى فى يتيمة الدهر هو دقة ترجمته للشعراء والكتاب على الرغم من عنايته بتنميق العبارات وإظهار مقدرته على التصرف فى فنون التعبير .

كما أنه يبرز فى ترجمته بعض الخصائص الفنية للأديب الذى يترجم له ويربط بينه وبين المدرسة التى ينتمى اليها كمدرسة أبى تمام والبحترى وابن الرومى(٢) .

(١) اليتميه ٢ /٣٨١

(٢) اليتميه ٢ /٣٤٩

كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى

ت ٤٦٦ هـ

والكاتب تأثر بالسابقين وأخذ عنهم وكتابه خلاصة لكثير من وجهات النظر فى العربية وأصولها وفقه لغتها ودراسة منتظمة لعناصر الجمال الأدبى مع آراء قيمة فى النقد والبلاغة وفنون الأدب تدل على سعة ثقافته ورأى منظم وعمق فى التفكير الأدبى . ويمكن أن يعد هذا الكتاب من النقد التطبيقى .

ويدور الكتاب حول البحث فى ماهية الفصاحة بعد أن رأى مؤلفه أن الناس قد اختلط عليهم هذا المدلول بمدلول البلاغه ، فلم تتميز الفصاحة عن البلاغة تميزا واضحا فأراد أن يحدد معنى الفصاحة تحديداً أدق وأعمق من كل من سبقه فى تناول هذا الموضوع .

وقد عنى ببحث هذا الموضوع لتأثيره الواضح فى العلوم الأدبية لأن الزبدة منها والثمرة نظم الكلام على اختلاف تأليفه ونقده ومعرفة ما يختار وما يكره وكلا الأمرين متعلق بالفصاحة .

وفضلا عن ذلك فهناك الفائدة الخاصة لعالم الشريعة لأن المعجزة الدالة على نبوة رسول الله ﷺ هو القرآن والخلاف الظاهر فيما به كان معجزاً على قولين : أحدهما أنه خرق العادة بفصاحة وليس للذاهب إلى هذا المذهب مندوحة من بيان معنى الفصاحة التى وقع التزايد فيها موقعا خرج عن مقدور البشر . والقول الثانى أن وجه الاعجاز فى القرآن صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت فى مقدورهم لولا الصرف(١) .

(١) اعجاز القرآن الرافعى ص ١٨٦

وأمر القائل بهذا يجرى مجرى الأول فى الحاجة إلى تحقيق الفصاحة ما هى ، ليقطع على أنها كانت فى مقدورهم ، من جنس فصاحتهم[١] .

والكتاب يشتمل على الكثير من التعريفات والحدود التى تخدم النقد التطبيقى .

وله آراء فى النقد الأدبى منها :

— أن النقد تخصص وصناعة لها أهلها يقول (وقد زل أبو هاشم[٢] فألحق الحشو الجيد بالردىء . وأبو هاشم وأن العالم المتقدم فى صناعة الكلام فليست معرفته بالجواهر والأعراض وليس كلامه فى العدل والألطاف مما يفيده العلم بصناعة نقد الكلام المؤلف ، وفهم النظم والنثر ، كما أن من المتقدمين فى هذا العلم من يجهل أول ما يجب على العاقل فضلا عما تجاوزه ونعوذ بالله من تعاطى مالا نحسنه ونسأله التوفيق والعصمة فيما نقوله)[٣] — وقد أكد هذا المعنى وشرح مقصده فى كتابه أكثر من مرة .

— ويقول بالطبع والذكاء[٤] والرواية كما يحث على الإيجاز وعدم الإطالة يقول (والوصية لهما الكاتب والشاعر ترك التكليف والاسترسال مع الطبع وبغض الاكثار والإطالة وتجنب الإسهاب فى فن من فنون الصناعة ، فإن كلام الإنسان ترجمان عقله ومعيار فهمه وعنوان حسه والدليل على كل أمر لولاه لخفى منه ويحسب ذلك يحتاج إلى التثقيف وإجماع اللب عند النظم)[٥] .

---

(١) سر الفصاحة : ٤

(٢) أحد رؤساء متكلمى المعتزلة

(٣) سر الفصاحة ١٤٠ — ١٤١ ، ٢٦٣

(٤) يسميه اللب ويطلق على الرواية التثقيف

(٥) سر الفصاحة : ٢٧٥

- وابن سنان ناقد موضوعى يعلل سبب الاستحسان أو الاسترذال ويظهر ذلك فى نقده للمتنبى .

- وهو يميل إلى المحدثين وينعى على من يفضل المتقدم لمجرد تقدم زمانه وهو متأثر بابن قتيبة فى هذا الرأى .

- وهو يتحدث عن أسس اختيار الشعر فبعض الباحثين يختار ما يوافق طبعه وغرضه ، ويذهب قوم إلى اختيار مالم يتداول منه حتى يكون للحوشى الذى لم يشتهر مزية عندهم على المعروف المحفوظ ، ويختار بعضهم سائر الشعر على خامله ، ويستحسن قوم الشعر لأجل قائل ، وهذه كلها أقوال صادرة عن الهوى من غير دليل يعضدها - وهذا يوضح أيضاً ميله إلى موضوعية النقد .

- يتحدث عن الفرق بين المنظوم والمنثور وما يقال فى تفضيل أحدهما على الآخر .

- يعنى بثقافة مؤلف الكلام ويرى ضرورة معرفة للدراسات اللغوية والنحوية والعروض والقوافى وأخبار العرب وأحاديثها وأنسابها وأمثالها ومنازلها وسيرها بصفة الحروب التى كانت لها . وماله قصة مشهورة وحديث مأثور ويرى أن الكاتب يحتاج إلى جميع ذلك ويختص لما يفتقر إليه من معرفة المخاطبات وفنون المكاتبات والتوقيعات ورسوم التقليدات مع الاطلاع على كتاب الله وشريعته وحديث رسوله عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم .

والكتاب يعنى كما قلت بما يحتاج إليه مؤلف الكلام لتجويد صناعته ولذا فهو يعد من النقد التطبيقى الذى يوضح الأسس العلمية للكتابة .

وبعد فماسبق نرى أن النقد الذى يعتمد على الذوق والعاطفة قد دعم بالأسس العلميه والموضوعية التى تهدف إلى خدمة النص الأدبى ، ويقابلنا

بعد ذلك كتابي عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز وفيهما عناية كبيرة بالبيان والنقد وهو متأثر بالسابقين . وآراء عبد القاهر تلمح فيهـا إتجاهات إنسانية والتزامه منهجا علميا موضوعيا يلتزمه من خلال ذوقه المدرب وحسه المرهف كما إنه كان عالما صليعا في الدين والجدل والنحو والأدب[1] . وربما كان آخر النقاد العظام من العرب هو ابن الأثير صاحب المثل السائر وقد مرت الإشارة إليه .

وبذا نكون قد انتهينا من دراسة أهم كتب النقد الأدبي العربي القديم . وبالله التوفيق ؟

---

(١) شذرات الذهب ٣/٣٤٠ ، وأنباه الرواة ٣/١٨٨ ، وبغية الدعاة : ٢١١ .

المصادر والمراجع

إتجاهات النقد الأدبى	د. منصور عبد الرحمن
أسس البلاغة	عبد القاهر الجرجانى
الأسس الجمالية فى النقد العربى	د. عز الدين إسماعيل
أسس النقد الأدبى عند العرب	أحمد بدوى
أصول النقد الأدبى	أحمد الشايب
الأغانى	لأبى الفرج الأصفهانى
أنباه الرواه على أخبار النحاة ابن القفطى	تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم
بلاغة أرسطو بن العرب واليونان	ابراهيم سلامة
البيان والتبيين	الجاحظ
تاريخ النقد الأدبى عند العرب	د. طه ابراهيم
الحيوان	الجاحظ
دراسات فى نقد الأدب العربى	د. بدوى طبانه
سر الفصاحة	ابن سنان الخفاجى
الشعر والشعراء	ابن قتيبة
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب	عبد الحى بن العماد
الصناعتين	أبو هلال العسكرى
طبقات فحول الشعراء	ابن سلام الجمحى
طبقات الشعراء المحدثين	ابن المعتز
العمدة فى صناعة الشعر ونقده	ابن رشيق
عيار الشعر	ابن طباطبا العلوى
القاضى الجرجانى والنقد الأدبى	د. عبده قلقيله

الكامل فى اللغة والأدب	المبرد
المثل السائر	ابن الأثير
مقدمة لدراسة بلاغة العرب	أحمد ضيف
الموازنة بين أبى تمام والبحترى	الآمدى
النقد الأدبى سلسلة دار المعارف	
النقد المنهجى عند العرب	محمد مندور
الوساطة بين المتنبى وخصومه	القاضى الجرجانى
يتيمة الدهر	الثعالبى

الفهـــرس

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٣١٨ / ١٩٨٧ م